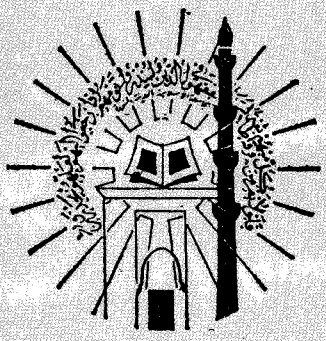

مجلة
الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

العدد الثالث ـ السنة العاشرة ـ ذو الحجة ١٣٩٧ هـ نوفمبر ـ تشرين ثانى ١٩٧٧م

الجامعة الإسلامية

مجلة تصدر اربع مرات في السنة
من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

لجنة المجلة :

محمد المجذوب
عبد القادر شيبة الحمد
محمد شريف
محمود فايد

المراسلات المتعلقة بالتحرير ترسل الى
الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة
العلاقات العامة

ISLAMIC UNIVERSITY MADINA
PUBLIC - RELATIONS

أهل الكتاب في القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ معوض عوض ابراهيم

أهل الكتاب في القرآن الكريم

إن الذين يستهدفون جلاء حقيقة إلهية في كتاب الله الكريم ، أو إبراز قضية من قضايا السنة المطهرة ، يمضون إلى غاياتهم في نور القرآن والسنة ، غير ملقين اسماعهم لصيحات باطل تتردد في فترة من فترات الزمان ، أو في أى مكان ، آخذين ذلك الأدب من كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى يقول لمصطفاه .

« ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزْم الأمور» آل عمران(١٨٥)

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم في ذلك القدوة الحسنة لصحبه ، حتى قال تعالى فيهم : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين» القصص/٥٥ .

وقال في خواتيم سورة الفرقان من صفات عباد الرحمن « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » الآية/٦٣

وقال « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما » الآية/٧٢

يمضى المسلمون إلى غاياتهم النبيلة لا يزايلون آدابهم التى توارثوها جيلا عن جيل ، وقبيلا في أعقاب قبيل ، من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، القولية والعملية على سواء .

« ولو أنهم ردُّوا منكر القول وزوره بحجة الحق ، وقوة الصدق ما اعتدوا

أبدا ، ولا جاوزوا مشارع الصواب » قال تعالى :

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِمَ وكان الله سميعا عليما » النساء/١١٤ . ولكننا نرجو عفو القادر الذى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . وهو تعالى يقول . . « إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًّا قديرا » النساء/١١٥ .

ولقد قال أحدهم لابن عباس رضى الله عنهما : هل علىَّ من جناح إن آخذت من ظلمنى ؟! فقال : لا . ثم تلا قوله تعالى :

« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » الشورى : ٤١ — ٤٢ .

واني لأذكر ، وكأن ذلك الساعة ، أننى كتبت من قرابة ثلاثين عاماً كلمة في مجلة « نور الاسلام » التى كانت وما تزال تصدرها اذارة الوعظ في الأزهر . وكان عنوان الكلمة « الجامعة الاسلامية . . بعد الجامعة العربية » وكانت الجامعة العربية وليدة ما تزال في السنة الرابعة من عمرها تقريبا ، وكانت الفرحة بقيامها أملا في إمكان جمع الصف الاسلامى وتوحيد أمه وشعوبه في جامعة اسلامية ، وكان الجو الذى كتبت فيه بحثى قبيل موسم الحج في ذلك العام ، فاسترعيت الانتباه الى إمكان جمع شتات أمتنا الكبرى التى تجتمع في الصلاة خمس مرات في كل يوم وليلة ، وتجتمع في الجمعة تجمعا أكبر ، وتجتمع في الأعياد على نحو اظهر وأبهر ، وتجتمع في فريضة الحج من كل فج عميق في مهد التوحيد ومنزل الوحى ، في عرفات وغيره من مشاهد الفريضة الخاتمة ! !

ولم يمض طويلُ زمن حتى حمل البريد الى رسالة أحد القسس منْ بلدة اسمها صفط الخمّار بمديرية المنيا يومئذ ، وهى في صعيد مصر ، وتبعد كثيرا عن بور سعيد التى كنت أؤدى فيها آنذاك أمانة الدعوة الى الله ، وفي الرسالة من سخائم النفوس ، وأوغار الصدور ، والضيق بالإسلام الكريم ما اجتزئ منه بمجرد الاشارة إليه ، ولون الماء من لون الإناء كما يقولون ، وصدق الله الذى يعلم من خلق ، « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم

قد بـدت البغضـاء من أفـواههم وما تخفى صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلَوا عضوا عليكم الأنـامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » آل عمران/١١٨–١١٩ .

وحسبي أن أورد هذه العبارة من رسالة القس فهي أخف ما فيها . . قال

« أي جامعة إسلامية تريدها يا شيخ معوض ؟ ! عوّضك الله خـيرا في الاسلام » ! ! !

ولقد رددت على الرسالة ، ولكن العهد حينئذ ، ونظام الحكم ، وضيق المسئولين بكلمة الاسلام حالت دون نشر ما كتبت

وللبحث والرسالة والرد عليها فُرَص تحين إن شاء الله مقرونة بذكريات ليس الى نسيانها من سبيل مع قسُسٍ كانت تجمعنا بهم صوالح المناسبات ، ولا يعلق بالخواطر من أقوالهم وأفعالهم ما يثير ريبة أو يدعو لإنكار ، وبور سعيد تذكر ذلك العهد وكم ذكروني به حين كنت بينهم من أيام تجدد عهد الدعوة في ظروف طغت فيها مادية « المدينة الحرة » على طبيعة الهدوء التي عرف الناس بها بور سعيد من قديم

أجل إن ما يتهاوى إلى الأسماع في هذه الأيام من بَرَم بتطبيق الشريعة الاسلامية في بعض أقطارها ، واستعلان أقوام كانوا منذ قريب يدعـون إلى « وحدة الأمة » و « وحدة الكتب الدينية » التي تملأ خواء الأنفس ، وفراغ الأرواح من سلطان الدين والايمان اللذين هما في المناخ الاسلامي البلسم والشفاء والهدى والضياء ، ولا شيء من ذلك في غير كلمة الله الأخيرة . . الاسلام ! !

استعلان هؤلاء باستنكارهم لتحكيم الشريعة الاسلامية في برقيات وبحوث ونشرات صفراء . . وإعلان الصوم أياما . . لا إلى الموت كما فعل ويفعل أقوام — يكشفُ عن خبيئة هؤلاء القناع ويسلط النور على ما يصطنعُونه حينا بعد حين من كيد وحيلة وخداع ، ويضيف جديدا من الشواهد على أن المسلمين وحدهم — هم صمام السلام ، وألوية الوئام منذ أعطى نبيهم صلوات الله عليه « أهل الكتاب » من يهود عهده « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . . وما يعنيه قوله « أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة » .

ولا يحسبن أحدٌ أن هذه السماحة تعنى الضعف أو المـــواربة والخداع ، كلا وإيم الحق ، وليسأل من شاء التاريخ القريب والبعيد ،

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وما يضائل من حرصى على متابعة ما بدأته من بيان « أهل الكتاب » في القرآن والسنة أن أدعو من ينصف من « أهل الكتاب » الى استجلاء حرص النبى صلى الله عليه وسلم على دعوة القوم الى الاسلام ابتداء بالأهم فما يليه ، وباب بعث معاذ إلى اليمن في الصحيحين وفي مسلم بشرح النووى يورد رواية « فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فاذا عرفوا الله فأخبرهم . . الحديث » وقد أورد الامام النووى كلاما للقاضى عيـــاض كأنه الالهام في هذه الأيام ، أو رؤية الغيب من وراء ستر رقيق ، قال النووى « قال القاضى عياض :

وهذا — مايستفاد من الرواية المذكورة يدل على أنهم — أهل الكتاب — ليسوا عارفين الله ، وهو مذهب حذاق المتكلمين في اليهود والنصارى ، أنهم غير عارفين الله تعالي ، وإن كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته ، لدلالة العقل عندهم على هذا ، وإن كان العقل لا يمنع ان يعرف الله تعالى من كذّب رسولا » .

قال القاضى عياض رحمه الله : « ما عرف الله تعالى من شبهه وجسمه من اليهود ، أو أجاز عليه البداء أو أضاف إليه الولد منهم ، أو أضاف إليه الصاحبة والولد ، وأجاز الحلول عليه والانتقال والامتزاج من النصارى »

« أو وصفه بما لا يليق به ، أو أضاف إليه الشريك والمعاند في خلقه من المجوس والثنوية ، فمعبودهم الذى عبدوه ليس هو الله ، وإن سموه به ، إذ ليس موصوفا بصفات الإله الواجبة له »

« فأذن ما عرفوا الله سبحانه ، فتحقّقْ هذه النكتة ، واعتمد عليها . وقد رأيت معناها لمتقدمى أشياخنا ، وبها قطع الكلام أبو عمران الفارسى بين عامة أهل القيروان عند تنازعهم في هذه المسألة » ١ هـ (١) .

وفي القرآن الكريم آيات تنطق بهذا النحو من الفهم بصراحة لا يعتريها شئ من الخفاء أو اللبس ، وآيات أخرى تطول بها أعناق طوائف اتّسَموا بالإنصاف والبراءة من اللجاج والخلاف والاعتساف ، وذهبوا بحظ وافر من

---

١ شرح الامام النووى لصحيح مسلم ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

الإيمان الواثق والإذعان المطمئن للاسلام

وكم نجد اليوم غير أستاذ في جوانب من شرق الدنيا وغربها ، قد خلعوا أردية التعصب للباطل ، والتشبث بما تواصى به غيرهم لمجرد أنه مواريث أوائلهم ، ونظروا في القرآن والسنة بتجرد وصدق في نشدان الحق ، فانكشف لهم من خلال الاسلام عقيدة ومنهاج عبادة وسلوك ما صرحوا به ولم يلمحوا، وأعلوا حجته على مأثورهم من معتقدات لا تتماسك أمام النظر السليم والعقل القويم » وهكذا يشق الحق طريقه ، ويشرق ويتألق ، قاهرا الأوهام وسجف الظلام التي تكتنفه وتعترض بفعل الأقـــوام مساره .

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار إبتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » الرعد/١٧

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي — رحمه الله — في كتابه أضواء البيان » جـ١ ص ٧٤ عند تناوله لقول الله تعالى :

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكـــم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون » البقرة/١٣١

أشار إلى أنه دين الاسلام هنا بقوله « فلا تموتن إلا وانتم مسلمون » وصرح بذلك في قوله « إن الدين عند الله الاسلام» آل عمران/١٩ .

وقوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » آل عمران/٨٥ . . ثم علق رحمه الله على قوله تعالى « وما أوتي موسى وعيسى . . » البقرة/١٣٦ فقال : « لم يبين هنا ما أوتيه موسى وعيسى ولكنه بينه في مواضع أخرى ، وذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله تعالى « صحف ابراهيم وموسى » الأعلى /١٩ وذلك لقوله « ثم آتيـــنا موسى الكتاب . » الأنعام /١٥٤ — وهو التوراة بالإجماع « وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الانجيل كما في قوله « وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل . . » الحديد /٢٧ ١ هـ إنها ليد بيضاء للقرآن على « أهل الكتاب » وهو يسمي كتبهم ، ويعرّف بها ، ويشيد بخصائصها في زمانها . وشهادتها

بما أنزل الله من بعد في الكتاب المهيمن والقرآن — ولله ولكتابه المثل الأعلى — هو الشمس التى تشرق بنور ربها ، وتعطى الفرصة لغيرها من الأشياء التى تظهر مزاياها وجوانب الحسن فيها ، فيكون للشمس ونورها في ذلك الظهور والوضوح أكبر الفضل .

ولقد كان من حق عارفة القرآن ، على « أهل الكتاب » أن لا يجحدوها طرفة عين . . لكن الطبائع غالية ، فمن القوم إن لم نقل أكثرهم من يُؤْمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويأخذون آيات الله هزوا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون ليس علينا في الأميين سبيل » قال تعالى :

« ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءها ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين البقرة /٨٩ .

هذا اجمال يتبعه تفصيل ، وعموم تلقاك على تخصيصه عما قليل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

التكرار في القرآن العظيم

لفضيلة الدكتور أحمد جمال العمري - كلية اللغة العربية والدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . . أضاء بصائرنا وأبصارنا بنور القرآن . وجعله آية خالدة على مر الزمان ، أحمده سبحانه ، جلّت حكمته ، وعظمت مشيئته ، له في كل مجال آية ، وفي كل خلق حكمة تشهد بعظمته الباهرة ، وقدرته القاهـرة .

والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيّ بعده ، الذى شرفه الله بالقرآن . . محمد بن عبد الله ، وعلى آلـه وصحبه ومن تبعه بإحسان .

سبحانك ربنا لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم . . ربنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

القرآن كلام الله المعجز للخلق في بلاغته وأسلوبه ونظمه ، المعجز في تأثير هدايته المعجز في تشريعاته ، المعجز في علومه وحكمه ، المعجز في كشف الحجب عن الغيوب الماضية . . وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفي كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول . . ولقد حار العلماء في كشف حجب البيان عن وجوه إعجاز القرآن . . فمن آيات هذا الإعجاز . . الإعجاز البلاغى . .

ومن صور الإعجاز البلاغى ظاهرة التكرار .

والتكرار : مصدر كَرَّرَ إذا رَدَّدَ وأعاد ، وهو (تَفْعَال) يفتح التاء . وليس بقياس . بخلاف (التَّفْعيل) وهذا مذهب سيبويه البصرى . أما الكوفيون ، فقالوا : هو مصدر (فَعَّل) والألف عِوَضٌ عن الياء في التَّفْعيل .

وقد أنكر بعض العلماء كوْنَ التكرار من أساليب الفصاحة ، وظنّوا أنه لا

فائدة له . . وهذا أمر مردود . . فالتكرار من محاسن أساليب الفصاحة العربية ، خاصة إذا تعلّق بعضُه ببعض . وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه - كررته توكيداً .

وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة .

وعلى ذلك يحتمل كل ما جاء في القرآن من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلاّ تكرارُ المواعظ والقوارع . قال الحق تبارك وتعالى :

« ولقد يَسَّرْنَا القُـــرآنَ للذِّكر »

قال الزمخشري (١) : « أي سهّلناه للإدّكار والاتعاظ بأن نسجناه بالمواعظ الشافية ، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد . . » .

والتكرار — في القرآن العظيم — قد يكون بتكرير الجملة مرتين

كقوله تعالى : (فَقُتِلَ كيفَ قَدَّر ثُمَّ قُتِلَ كيفَ قَدَّر) (٢)

(أولى لَكَ فأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لك فأَوْلى) (٣)

(لَتَرَوُنَّ الجحيم ثم لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقين) (٤)

(كلاَّ سَيَعْلَمُون ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُون) (٥)

وقوله تعالى : (وإنَّ منهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكتابِ لتَحْسَبُوهُ منَ الكِتَابِ وما هُوَ من الكِتَابِ ، ويقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ، وما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله) (٦)

وفائدته العظمى هنا التقرير . — لذلك قال العلماء : الكلام إذا تكرّر . . تقرّر .

وقد يكون بتكرير اللفظ . . وهذه هي حقيقته — أي إعادة اللفظ أو مرادفه ، لتقرير معنىً ، خشية تناسي الأول لطول في الكلام . . كما في قوله تعالى :

(ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بجهالةٍ ، ثُمَّ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ ، وأَصْلَحُوا إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لغَفُورٌ رحِيمٌ) (١)

وفي قوله تعالى : (ثُمَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثم

---

١ ـ الكشاف ٤/٣٤٦ ٢ ـ المدثر ١٩ ، ٢٠ ٣ ـ القيامة ٣٤ ، ٣٥
٤ ـ التكاثر ٦ ، ٧ ٥ ـ النبا ٤ ، ٥ ٦ ـ آل عمران ٧٨ ١ ـ النحل ١١٩

جَاهَدُوا ، وصَبَرُوا ، إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لغَفُورٌ رحِيمٌ) (١)

فإن أعيد اللفظ لا لتقرير المعنى الأول ، لم يكن من التكرار .

ففى قوله تعالى : (قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً له الدِّين ، وأُمِرْتُ لأنْ أكُونَ أوَّلَ المُسْلِمين ، قُلْ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّى عذابَ يومٍ عظيم ، قُلِ اللهَ أعْبُدُ مُخْلِصاً له دِينِي ، فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) (٢)

فأعاد قوله (قُلْ اللهَ أعبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) بعد قوله (قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين) — لا لتقرير الأول ، بل لغرضٍ آخر . .

لأن معنى الأول : الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها .

ومعنى الثاني : أنه يخصّ الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص ، لذلك قدّم المفعول على فعل العبادة في الثاني ، وأخّر في الأول . . لأن الكلام أولا في الفعل ، وثانيا فيمن فُعِل لأجله الفعل .

قال البلاغيون : إنما يحسُنُ سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل . أما إذا وَافَقَ الأصل فلا . . ولهذا السبب لا يتجه سؤالُهم :

لم كَرَّر (إيّاك) في قوله تعالى : (إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِين)

نقول : إنما كُرِّرت لغرض عظيم هو التأكيد .

ونقول أيضا : إنما كرّرت لإرتفاع أن يُتَوهّم — إذا حُذِفَت — أن مفعول (نستعين) ضمير متصل واقع بعد الفعل ، فتفوت إذْ ذاك الدلالة على المعنى المقصود ، بتقديم المعمول على عامِلِه . . هكذا قال النحويون .

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى بالأسباب التى لأجلها كرّرت الأقاصيص والأخبار في الكتاب العزيز فقال :

(ولَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتذكَّرُون) (٣)

وقال سبحانه : (وَصَرَّفْنَا فيه منَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) (٤)

---

١ ـ القصص ٥١
٢ ـ الزمر ١١ ـ ١٥
٣ ـ النحل ١١٠
٤ ـ طـه ١١٣

وللتكرار – في القرآن العظيم – فوائد جمة تشهد بروعة البيان الإلهي . . أهمها :

١ – أن التكرار يأتي في مقام التعظيم والتهويل :

كقوله تعالى : (الحاقّةُ ما الحاقّةُ) (١) (القارعةُ ما القارعةُ) (٢)

(إنّا أنزلْناهُ في ليلةِ القدْرِ ، وما أدْراكَ ما ليلةُ القدْرِ) (٣)

(وأصحابُ اليمينِ ما أصْحابُ اليمينْ) (٤)

(فأصحابُ الميْمنةِ ما أصْحابُ الميْمنةِ ، وأصْحابُ المشْأمةِ ما أصْحابُ المشْأمةِ) (٥)

٢ – أنه قد يأتي في مقام الوعيد والتهديد :

كقوله تعالى : (كلاّ سوْفَ تعْلمُون ، ثُمّ كلاّ سوْفَ تعْلمُونَ) (٦)

وقد ذكر (ثُمّ) في المكرر ، دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول .

وفي هذا القول أيضا ، تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة ، لا يتطرق إليه تغيير ، بل هو مستمر دائما .

٣ – التعجب :

كقوله تعالى : (فقُتِل كيْفَ قدّرَ ، ثُمّ قُتِلَ كيفَ قدّرْ) (٧)

فكرّر تعجُّباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حدّ « قاتلَهُ الله ما أشجعه »

٤ – زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكْمُلَ تلقي الكلام بالقبول

كقوله تعالى : « وقالَ الّذي آمنَ يا قوْمِ اتّبعُونِ أهْدِكُمْ سبيلَ الرّشادِ ، يا قوم إنمّا هذه الحيَاةُ الدُّنْيا متَاعٌ » (٨) فإنه كرر فيه النداء لذلك

٥ – الأمْنُ من النسيان أو السّهو . فالكلام إذا طال وخُشِيَ تنَاسِي الأوّل أُعيدَ ثانية تطريةً له ، وتجديداً لعهده . كقوله تعالى :

(ولمّا جاءَهُم كتابٌ من عِنْد الله) . . ثم قال (فلما جاءَهُمْ ما عرَفُوا) (٩)

فهذا تكرار للأول .

وقوله تعالى : (أيَعدُكُمْ أنكُمْ إذا مِتُّمْ وكُنْتُم تُراباً وعِظاماً أنّكُمْ

---

١ – الحاقة ١ ، ٢ ٢ – القارعة ١ ٣ – القدر ١ ، ٢

٤ – الواقعة ٢٧ ٥ – الواقعة ٨ ، ٩ ٦ – التكاثر ٦ ، ٧

٧ – المدثر ١٩ ، ٢٠ ٨ – المؤمن ٣٨ ، ٣٩ ٩ – البقرة ٨٩

مُخْرَجُون (١)) فقوله (أنكم) الثاني بناء على الأول ، إذكاراً به خشية تناسيه .

وكذلك قوله : (إنَّا كذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنين ، إنَّ هَذا لَهُوَ البَلاَءُ المُبِينُ . وفَدَيْنَاهُ بذبحٍ عظيمٍ) (٢) . . إلى قوله (كذلك نَجْزِي المُحْسِنينَ بغير (إنَّا) ، وفي غيره من مواضع ذَكرَ (إنَّا كذلك) ، لأنه يُبْنَى على ما سبقه في هذه القصة (إنّا كَذَلِكَ) فكأنه طَرَحَ فيما اكتفى بذكرِهِ أولا عن ذكْرِهِ ثانيا .

ولأن التأكيد بالنِّسْبَة ، فاعتبر اللفظ من حيث هو دون توكيده .

٦ ــ وتظهر روعة إعجاز هذا الباب أكثر ما تظهر عند تَعَدّد المُتَعَلّق .

كما كرره الله تعالى من قوله : (فَبِأَيّ آلاء ربِّكُمَا تُكَذِّبان) لأنه تعالى ــ ذكر نعمةً بعد نعمة ، وعقّب كلَّ نعمة بهذا القول . . فإنها وإن تعدّدت ، فكُلٌّ واحد منها متعلق بما قبله ، وان الله تعالى خاطب بها الثَقَلَيْن من الإنس والجن ، وعدّد عليهم نعمةَ الله التي خلقها لهم ، فكلّما ذكر فصلاً من فصول النِّعم طلب إقرارَهم واقتضاهم الشكرَ عليه ، وهي أنواع مختلفة ، وصور شتى . فإن قيل . . فإذا كان المعنى في تكريرها عدّ النِّعم واقتضاء الشكر عليها . . فلماذا عقّب بهذا القول ما ليس نعمة ، كما في قوله :

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نارٍ ونحاسٌ ، فَلاَ تنتصران) (٣)

وقوله : (هذه جهنم التي يُكَذِّبُ بها المجرمُونَ ، يطوفُونَ بَيْنَهَا وبَيْنَ حَمِيمٍ آن) (٤) وأي نعمة هنا ؟ وإنما هو وعيد . .

أجاب القزويني فقال : العذاب وجهنم ــ وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى ــ فإن ذكرهما ووضعهما عن طريق الزجر عن المعاصي ، والترغيب في الطاعات ، من آلائه تعالى ، ونحوه قوله : (وَيْلٌ يومئذٍ للمكذِّبين) (٥) ، لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة ، واتبعَ كلَّ قصة بهذا القول ، فصار كأنه قال عَقِبَ كلِّ قصة : ويلٌ يومئذ للمكذبين بهذه القصة » (٦) .

---

٢ ــ الايات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ من المرسلات ٣ ــ الرحمن ٣٥ ٤ ــ الرحمن ٤٣ ، ٤٤

٥ ــ المؤمنون ٣٥ ٦ ــ الايضاح ص ١٩٨

ونقول أيضا : إن أنعم الله فيما أنذر به ، وحـــذّر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ما وعده ، وبشّر من ثوابه على طاعته ، ليرغبوا فيها ، ويحرصوا عليها ، وإنما تتحقق معرفةُ الشيء بأن تعتبره بضدّه ، والوعد والوعيد وإن تقابـــلا في ذروتهما ، فإنهما متقاربان في موضع النِّعم بالتوقيف على ملاك الأمر منهما . . وعليه قول الشاعر :

والحَادِثَاتُ وإنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا فَهُوَ الذَّي أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا

ومن هذا النوع من التكرار قوله تعالى : (إنَّ في ذلك لآية وما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنين ، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيم) (١) — في ثمانية مواضع ، لأجل الوعظ فإنه قد يتأثر بالتكرار من لا يتأثر بالمرة الواحدة .

وأما قوله تعالى : (إنَّ في ذَلِكَ لآية) فذلك لظهور آيات الأنبياء عليهم السلام . والعجب من تخلّف من لا يتأملها مع ظهورها .

وأما مناسبة قوله (العزيزُ الرّحيمُ) فإنه تعالى نفى الايمانَ عن الأكثر ، فدلّ بالمفهوم على إيمان الأقلّ ، فكانت العزّة على مَنْ لم يؤمن ، والرحمة لمن آمن ، وهما مرتبتان كترتب الفريقين (٢) .

ومن هذا التكرار أيضا قوله تعالى : (فَذُوقُوا عَذَابي ونُذُر) (٣)

قال الزمخشري (٤) « كُرِّر ليجدوا عند سماع كل نبأٍ منها إتعاظاً وتنبيهاً ، وأن كلّاً من تلك الأنباء مستحق باعتبار يختص به ، وأن يتنبهوا كي لا يغلبهم السرور والغفلة » .

ومنه كذلك — تكرار الأمر بالتوجّه إلى بيت الله الحرام في ثلاث آيات من سورة البقرة . وهو قوله تعالى : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرامِ) (٥) .

لأن المنكرين لتحويل القبلة — كما ذكر المفسرون — كانوا ثلاثة أصناف من الناس :

— اليهود . . لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم .

— وأهل النفاق . . وكانوا أشدّ إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل .

— وكفار قريش . . الذين قالوا : ندم محمدٌ على فراق ديننا ، فيرجع إليه كما

---

١ ـ الشعراء ٨ ، ٩ ٢ ـ البرهان ٣/١٤ ٣ ـ القمر ٣٩

٤ ـ الكشاف ٤/٣٤٩ ٥ ـ الايات ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠

رجع إلى قِبْلَتِنَا . وكانُوا قبل ذلك يحتجون عليه ، فيقولون : يزعم محمدٌ أنه يدعـــونا إلى ملّة إبراهيم وإسماعيل ، وقد فارق قِبْلَتهما وآثر عليها قِبلة اليهود .

فقال الحق تبارك وتعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة :

(لِئَلاَّ يكُونَ لِلناسِ عَلَيكُمْ حُجّةٌ إلاّ الذّينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) (١)

والاستثناء في هذه الآية مُنْقَطِع – أى لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعـــون ولا يهتدون وقال جلّ جلاله : (الحَقُّ مِنْ ربِّكَ فلاَ تَكُونَنّ من المُمْتَرِينَ (٢)

أى الذين أشركوا فلا تُمْتَر في ذلك .

وقال تعالى : (وإنّ فريقاً مِنْهُمْ ليكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُون) (٥)

أى يكتمون ما علموا أن الكعبة هى قبلة الأنبياء .

ومن هذا التكرار أيضا – قوله عز وجل في سورة الصافات (٤) :

(فتوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ ، وأبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُون) .

ثم كرَّر هاتين الآيتين بعد ذلك في قوله سبحانه (٥) :

(وتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ ، وأبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُون)

قال المفسرون – في غريب القرآن : إنما كرَّر للتأكيد وتشديد الوعيد .

وقالوا أيضا : يحتمل أن يكون « الحين » في الأولين (٦) يوم بدر ، والحين في هاتين (٧) يوم فتح مكة . وفرقوا بينهما فقالوا : إن من فوائد قوله تعالى في الأولين (وأَبْصِرهُمْ) وفي هاتين (فأَبْصِرْ) – أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلا وأسراً ، وهزيمة ورعْباً ، فلما تضمّنت التّشفّى بهم قيل له : (أبْصِرْهُمْ) . وأما يوم الفتح ، فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعامُ بتأمينهم ، والهداية إلى أيمانهم ، فلم يكن وفقا للتشفّى بهم ، بل كان في استسلامهم ، وإسلامهم لعينه قَرّة ، ولقلبه مسّرة . فقيل له : (أَبْصِرْ) .

ومن التكرار كذلك – قول الحق تبارك وتعالى :

لاَ هُنّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلّون لَهُنّ) (٨) .

---

١ – البقرة ١٥٠ ٢ – البقرة ١٤٧ ٣ – البقرة ١٤٦

٤ – الايتان ١٧٤ ، ١٧٥ ٥ – الايتان ١٧٨ ، ١٧٩ ٦ – اى فى الايتين ١٧٤ ، ١٧٥

٧ – اى فى الايتين ١٧٨ ، ١٧٩ من ودة البقرة ٨ – الممتحنة ١٠

قال علماء الفقه : للتكرار هنا فائدتان . .

أما الفائدة الأولى: أن التحريم قد يكون في الطرفين ، ولكن يكون المانع من إحداهما كما لَوْ ارتدّت الزوجة قبل الدخول ، يحرّم النكاح من الطرفين ، والمانع من جهتهما ، فذكر الله سبحانه الثانية ، ليدل على أن التحريم كما هو ثابت في الطرفين ، كذلك المانِعُ منهما .

وأما الفائدة الثانية : أن الأولى دلّت على ثبوت التحريم في الماضى ، ولهذا أتي فيها بالإسم الدّال على الثبوت ، والثانية في المستقبل ، ولهذا أتي فيها بالفعل المستقبل .

ومن التكرار في القرآن المجيد أنواع كثيرة . . كلها تشهد بعظمة الحق سبحانه ، وتعترف بإعجاز كتابه المبين . أهمها :

١ – تكرار الإضراب (١) :

وقد ورد في القرآن العظيم منه ضربان :

أولهما : أن يكون ما فيه من الرّد راجعا إلى العباد . (كقوله تعالي)

(قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) (٢)

وثانيهما : أن يكون إبطالا ، ولكنه على أنه قَدْ مضى وانقضى وقته ، وأن الذى بعده أَوْلى بالذكر . كقوله تعالى :

(بَلِ ادَّارك عِلمُهُمْ في الآخرة . . بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لمَّا يَذُوقُوا عَذَاب) (٣) .

وزعم ابن مالك في شرح الكافية – أن (بَلْ) حيثُ وقعت في القرآن فإنها للاستئناف لغرض آخر – لا لإبطال الأول . وهذا الكلام مردود بما سبق ، ومردود بقوله أيضا : (وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون)(٤) فأضرب بها عن قولهم ، وأبطل كَذِبَهُم .

٢ – تكرار الأمثال :

كقوله تعالى : (وما يَسْتَوِى الأَعْمَى والبَصِيرُ ، ولا الظُّلُمَاتُ ولا النور ، ولاَ الظِّلُّ ولا الحرور ، وما يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ) (٥) .

وكذلك ضَرْب مثل المنافقين – في أول سورة البقرة (٦) – ثنّاه الله تعالى ،

---

١ – قال البلاغيون : ان (بل)اذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناهاالاضراب ، وهو اذا وقع فى كلام البشر فمعناه ابطال ما سبق على طريق الغلطمن المتكلم ، أو ان الثانى اولى .

٢ – الانبياء ٢١

٣ – سورة ص ٨

٤ – الانبياء ٢٦

٥ – فاطر ١٩ ، ٢٢

٦ – الايقان ١٧ ، ١٩

فقال سبحانه : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذّي استوقَدَ نَاراً فلمّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهم ، وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرون) — مع قوله : (أَوْ كصيِّبٍ من السماءِ فيه ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْق يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ من الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ) .

قال صاحب الكشاف (١) — معلّقا على قيمة هذا التكرار : « والثاني أبلغُ من الأول ، لأنّه أدلّ على فَرْط الحيرة ، وشدّة الأمر وفظاعته ، لذلك أُخِّر ، والعرب يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ .

٣ — تكرار القصص :

وما دُمنا نتحدث عن التكرار في القرآن الكريم — بوصفه آية من آيات إعجازه الكبرى ، فإننا لا نستطيع أن نَغْفِل عنصراً هاما من عناصر هذا التكرار — ألا وهو تكرار القصص القرآني ، وإن كُنّا نعتقد أنــه موضوع كامل متكامل ، يحتاج إلى بحث مستقل — وسنتناوله إن شاء الله — إلا أننــا نشير الآن إلى بعض ما يتصل به استيفاء لهذا البحث .

أقول . . إن من أنواع التكرار — تكرار القصص ، كقصة إبليس في السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء . فقد ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعا من القرآن العظيم ، وذكر قصة نوح في خمس وعشرين آية ، وقصة موسى في سبعين آية ، وإنما كررها — كما يقول صاحب كتاب « العواصم من القواصم » (٢) لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر . وسبب ذلك أمور :

احداها : أنه إذا كرّر القصة زاد فيها شيئا ، ألا ترى أنه ذكر الحيّة في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر ثعباناً ، فقال تعالى : (فَأَلْقَاهَا فإذا هى حية تَسْعَى) (٣) وقال سبحانه : (فألْقَى عَصَاهُ فإذا هى ثُعْبَانٌ مبين) (٤) .

وهذه سمة من سمات البلغاء . . أن يكرر أحدهم في خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة .

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ، وكان أكثر من آمن به مهاجريا ،

---

١ ـ الزمخشرى ١/٦١ ٢ ـ الامام ابو بكر ابن العربى تقلاعن البرهان فى علوم القران ٣/٢٥

٢ ـ طه ٢٠ ٤ ـ الاعراف ١٠٧

فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذلك سائر القصص . . فأراد الحق سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون . . هكذا قال ابن الجوزى .

الثالثة : تسليته لقلب النبى — صلى الله عليه وسلم — مما أتفق للأنبياء مثله مع أممهم — قال تعالى : (وكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ) (١)

الرابعة : ان إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة لا يَخْفَى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : قالها ابن فارس (٢) — وهى أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعَجَزَ القوم عن الإتيان بمثل آيه لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا بأى عبارة عبّروا .

السادسة : أنه لما سَخِرَ العرب بالقرآن قال : (فأْتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِهِ) (٣) وقال في موضع آخر : (فأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ) فلو ذكر قصة آدم مثلا في موضع واحد ، واكتفى بها ، لقال العربيّ بما قال الله تعالى : (فأْتُوا بسورة مِنْ مثله) : (إيتونا أنتم بسورة من مثله) فأنزلها الله تعالى في تعداد السور ، دَفْعاً لحجّتهم من كل وجه .

السابعة : أن القصة الواحدة من هذه القصص ، كقصة موسى مع فرعون — وإن ظُنَّ أنها لا تغاير الأخرى ، فقد يُوجَد في ألفاظها زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإن كلّ واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها . فكأن الله تعالى فَرَّقَ ذكرَ ما دار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسّم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها ، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وُجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ، من انفراد كل قصة منها بموضع ، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة .

---

١ ـ هود ١٢٠ ٢ ـ فقه اللغة ص ١٧٨ ٣ البقرة ٢٣

وخلاصة القول : لقد اجتمعت في هذه الخصيصة من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة :

منها : أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هُجْنَة ، ولا أحدث مَلَلاً ، فبايَنَ بذلك كلامَ المخلوقين .

ومنها : أنه ألبسها زيادة ونقصانا ، وتقديما وتأخيرا ، ليُخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ، فنزّهه — الحق سبحانه — عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنها : أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص ، صارت متفرقة في تارات التكرير ، فيجد المرء — لما فيها من التغيير — ميلاً إلى سماعها ، لما جُبلت عليه النفوس من حُبِّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد .

وقد كان المشركون — في عصر النبي صلى الله عليه وسلم — يَعْجبون من إتساع الأمر في تكرار هذه القصص والأنباء ، مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرَّفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد لقوله تعالى : (قُلْ لَوْ كان البَحْرُ مِدَاداً لكلمات ربيِّ لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ولَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدَاً) (١) .

وهنا يكون القرآن قد وصل إلى غايته وهدفه من التكرار . .

وهنا يبرز سرّ إعجازه ومبلغ عمقه في تقرير المسائل وتكريرها . .

نفّعنا الله بالقرآن العظيم ، وجعله فاتحة الخير لنا . . نوراً لأبصارنا وضياء لبصائرنا ، إنه نعم السميع المجيب . .

د. احمد جمال العمرى

---

١ ـ الكهف ١٠٩

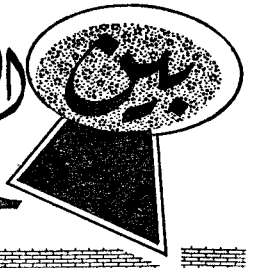

بين القرآن والكتب السماوية
حكم حفظه دونها

لفضيلة الدكتور ابراهيم عبد الحميد سلامية - بكلية الدعوة وأصول الدين

إذا كانت الكتب السماوية التى عرفتها البشرية قبل القرآن الكريم ، قد طواها الزمن ، وصارت كأن لم تكن ، ولم يصل إلينا منها سوى التوراة والانجيل على ما بهما من تحريف وتبديل ، فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى ضمن الله له البقاء والخلود ، وتكفل سبحانه بحفظه وحراسته مصداقا لقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١) .

فكما أن ظاهر القرآن حجة على فصحاء العرب والعجم بنظمه ، فكذلك باطنه حجة على علماء العرب والعجم بحكمه وعلمه ، وكما أن ظاهره مربوط بنظم لا يتطرق إليه عيب ، فكذلك باطنه مبسوط بحكم ، لا تبقى معه مادة لريب ، وكما أن ظاهر نظمه ، لو وقع فيه خلل ، لكان للطاعنين فيه مقال ، فكذلك إن وقع في نظم معانيه زلل لكان للمعرضين عنه مجال ، وإليه أشار الحق بقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

وتكفل الحق جل في علاه – بحفظ القرآن الكريم من التحريف ، دون غيره من الكتب السماوية الأخرى ، حقيقة قررها القرآن الكريم ، وصدقها ويصدقها واقعه الملموس ويشهد بها المنصفون من أعدائه ، حيث أذعنوا واعترفوا بأن ما بين دفتى المصحف هو عينُ ما نطق به محمدٌ ، لم يصبه أدني تحريف (٣)

حكمة حفظ القرآن من التحريف دون غيره من الكتب السماوية

وإنما كان الأمر كذلك ، بالنسبة لهذا الكتاب الخالد ، لحكم متعددة

---

١ – الحجر / ٩ ٢ – فصلت / ٤٢ وانظر كتاب (مقدمتان فى علوم القران) : آرثر جفر / ٥

٣ انظر كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) : عبد الرحمن باجه جى زاده (٢٧٥ – ٢٧٧)

أبرزها ما يلي : —

الحكمة الأولى :

أن القرآن الكريم هو أصل الدين ، ومنبع التشريع الحكيم ، ودستور الاسلام ، ولما كان الاسلام دينا عاماً خالداً ، ليس موقوتا بزمن معين ، ولا بمكان محدد ، بل هو عام شامل لكافة الخلائق ، منذ بعث الله به نبيه محمداً — صلى الله عليه وسلم — إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، مصداقا لقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً / (١) لما كان الأمر كذلك فقد اقتضت حكمة الله حفظ كتابه وبقاءه كاملا غير منقوص صحيحاً غير باطل ، ضمانا لهذا العموم في الزمان والمكان وتحقيقا له .

ولما كانت الرسالات السابقة محلية موقوتة بزمان ومكان معينين فلم تكن هناك من حكمة في حفظ كتبها ، وما كانت هذه الكتب السابقة على القرآن إلا خطوات تمهيدية مهدت للخطوة الأخيرة وللغرض النهائي وللكتاب العزيز الذى أتي الانسانية بعد أن بلغت رشدها ، وأتي العقل بعد أن بلغ نضجه وعلمه ، ولو أراد الله أن تكون هذه الكتب هداية للإنسانية عامة في كل مكان وآن ، لحفظها وصانها ولحال دون تحريفها ، ولذلك لم يحفظ الله إلا كتابه الخالد المنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم .

الحكمة الثانية : أن القرآن الكريم هو آية الاسلام الكبرى ومعجزته العظمى : فكان لابد في نظر الحكمة الالهية من حفظه لتكون هذه المعجزة ملازمة لهذا الدين الخالد ، باقية إلى جواره تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة ، حتى لا يكون لأحد عذر في ترك هذا الدين الأخير ، الذى ختم الله به الأديان والشرائع ، ولذلك اقتضت حكمته تعالى أن تكون معجزة هذا الدين صالحة للبقاء والخلود ، فكانت دون سواها كلاماً يتلى في أذن الدهر ، وحديثا يقرأ على سمع الزمان ، وكتب لـه الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام ، ولم يمت بموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل هو قائم في فم الدنيا يحاج كل مكذب ، ويتحدى كل منكر ، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية . . .

ومن هنا يظهر الفرق جليا بين معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزات إخوانه من الأنبياء — عليهم السلام —

١ ـ سبا / ٢٨

فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة ، وهى متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد قصيرة الأمد ، إذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان . (١) .

يقول الامام السيوطى في ذلك ، ولأن هذه الشريعة ، لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذو البصائر كما قال صلى الله عليه وسلم : (ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً (٢)

ومعنى هذا أن معجزات الأنبياء قد انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، ويمكن أن يقال في معنى الحديث ، أن معجزات الرسل السابقين لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت حسية تشاهد بالأبصار ، كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزات القرآن تشاهد بالبصائر فيكون من يتبع محمداً لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا . (٣)

الحكمة الثالثة : أن القرآن الكريم قد أتي بهدايات تامة كاملة ، تفى بحاجات البشر في كل زمان ومكان — وفاء لا نظير له في أى كتاب آخر ، وأن البشرية لا غنية لها عن هذه الهدايات القرآنية ، فما أمر القرآن بشئ يمكن الإستغناء عنه ولانهى عن شئ يحسن الالمام به ، ولذلك خلد على مر الزمان .

ومن جهة ثانية فإن القرآن بما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، وأخلاق ومعاملات حق دائم ، لا ريب فيه وصدقه باق ، لا تناله الأيام بشئ ، لأن الحق لا يزول ولا يحول ، وذلك سر خلود هذا الكتاب العظيم .

الحكمة الرابعة : أن القرآن الكريم خلاصة وافية لكتب الله السابقة ، فهو جامع لما توزع فيها من حق وعدل ، وفضل ونبل ، وزائد على هذه الكتب ما يناسب عصره ، وما بعد عصره إلى يوم الدين .

وإلى بعض هذه الحكم يشير الدكتور محمد عبد الله دراز — رحمه الله — بعد أن بين أن من حق القرآن أن يُعنى

---

١ ـ مناهل العرفان فى علوم القران للشيخ الزرقانى ج ٢ / ٢٣٢

٢ ـ البخارى ـ باب فضائل القرآن ج ٦ ص ٤٢٤ ط الشعب

٣ ـ الاتقان فى علوم القران للسيوطى ج ٢ / ١١٦ ـ ٢١١٧

بحفظه في الصدور والسطور – فيقول : (وبهذه العناية المزدوجة ، التى بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقى القرآن محفوظاً في حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه ولم يُصبه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل ، وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال : (والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) أى بمـــا طلب إليهم حفظه . .

والسر في هذه التفرقة ، أن هذه الكتب السماوية السابقة للقرآن جئ بها على التوقيت ، لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جئ به مصدقا لما بين يديه ، من الكتب ، ومهيمنا عليها ؛ فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بمـــا شاء الله زيادتـــه ، وكان ساداً مسدّها ، ولم يكن شئ منها ليسدّ مسدّه ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم . (١)

فما هى هذه الأسباب التى يسرّها الله لحفظ كتابه وصونه عن التحريف والتبديل ؟ ذلك ما سنعرض لبيانه في مقال تالٍ إن شاء الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د. ابراهيم عبد الحميد سلامه
أستاذ التفسير المساعد
كلية الدعوة وأصول الدين
٣ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧ هـ

١ ـ النبا العظيم د محمد عبد الله دراز (٨ ـ ٩)

عالمية الرسالة

بين النظرية والتطبيق

لفضيلة الشيخ محمد الغزالي - رئيس قسم الدعوة بكلية الشريعة بمكة

كان الوحي الآلهي قديما يتخير بقاعا من الارض لينزل بها كما ينزل الغيث في مكان دون مكان . لكن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت نقلة جديدة بالعالم كله وتحولا في حركة الوحي الآلهي على ظهر الأرض . إذ جاءت الرسالة الاخيرة لكل بشر يعقل ما يسمع . . ثم هي قد صحبت الزمان في مسيرته ، فاذا انتهى جيل من الناس فان الجيل الذي يليه مخاطب بها مكلف أن يمشي في سناها .

والاجماع معقود بين المسلمين على عموم الرسالة وخلودها ، ونريد ان نلقي نظرة على الآيات التي دلت على عالمية الرسالة لنستخلص منها حكما محددا . .

قال تعالى في سورة التكوير : « فأين تذهبون ؟ ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم ان يستقيم » وقال في سورة القلم « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : انه لمجنون وما هو الا ذكر للعالمين . »

وقال في سورة سبأ : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لايعلمون » وقال في سورة الفرقان : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » وقال في سورة الأنبياء : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) .

وقال في سورة يوسف : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من اجر الاان هو الا ذكر للعالمين)

وقال في سورة الانعام : (وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ). وقال أيضا في السورة نفسها (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين) وهذه الآيات كلها مكية ، أى ان عالميـــة الرسالة تقررت منذ بدء الوحى وفي الايام التى كانت الدعوة فيها تعاني الأمرين .

كان القرآن إذن يقرر انه رسالة للعالم كله في الوقت إذن كان فيه اهل مكة يستكثرون ان يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا لهم وحدهم ! !

ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالمية اكتفاء بما تمهد في صدر الدعوة الا آية واحدة من سورة الاحزاب هى قوله يل شأنه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وختم النبوة تقرير لهذه العالمية فان القارات الخمس الى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق ، ولن يجيئها من عند الله رسول ، وسيبقى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم وحده صوت السماء بين الناس الى ان يحشروا للحساب فيقال لهم : (لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) وآية ختم النبوة صدقتها الايام المتتابعة فها قد مضت اربعة عشر قرنا وما نزل من السماء وحى . وقد حاول الاستعمار الاوربي ان يضع يده على مخبول في الهند وآخر في ايران ليصنع منهما انبياء يكابر بهما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهيهات هيهات فان الاوربيين أنفسهم احتقروا الرجل الذى صنعوه فما تبع احدهم متنبئ الهند ولا متنبئ العجم ، وبدأت اللعبة تتكشف ويفر عنها المستغفلون ! ! ان الصباح العريض الذى بزغ مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم سوف يظل وحده النور الذى يغمر العالم ويملأ الافق الى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والاحياء .

وانما لفتنا النظر الى ان الآيات الناطقة بعالمية الرسالة مكية كى ندحض فرية لبعض المستشرقين الذين زعموا ان محمد صلى الله عليه وسلم بدأ عربي الرسالة معنيا بقومه وحدهم فلما نجح في اخضاعهم اغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة فزعم أنه للخلق كلهم . وهذا تفكير سقيم المأخذ بين السخف ، فقد رأيت بالاستقراء ان عالمية الرسالة

تم التصريح بها في أوائل ما نزل من الوحى ! ! .

ثم نسأل : متى تم خضوع العرب لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يغريه النجاح بمزيد من التوسع ؟ ان مكة التي طاردته لم تفتح له الا قبل الممات بسنتين اثنتين ، فأين استقرار النصر والتطلع الى اخضاع الدنيا وهو لما ينته من الجزيرة العربية نفسها ؟ ؟

ان هذا الفكر الاستشراقي لم يلق حفاوة من عاقل ، ولذلك نخلص منه لنقرر حقائق أخرى نابعة من هذه الحقيقة المؤكدة حقيقة ان محمدا رسول الى العالمين من رب العالمين . واول ما نقرره ان هذه الصفة انفرد بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فكل الانبياء من قبله محليون ، رسالتهم محدودة الزمان والمكان . ابتداء من آدم الى عيسى .

والنصارى يرون ان رسالة عيسى عالمية وينطلقون بها في كل مكان ليبلغوها وينشروها ، ونحن نحب نبى الله عيسى ونعتقد أنه رسول حق الى بنى اسرائيل خاصة (واذْ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد . .) .

على ان النصرانية التى تشيع بين الناس اليوم وتساندها قوى كثيرة تخالف رسالات السماء كلها اذ هى فلسفة تجعل من عيسى الها أو شبه إله يرسل الرسل وينزل الكتب ويغفر الذنوب ويحاسب الخلائق . .

والنصرانية بهذا المفهوم المستغرب لا يعنينا ان تكون عالمية او محلية لانها شئ آخر غير ما ينزل الوحى به على سائر الرسل ، قال تعالى لنبيه محمد (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) ان هذه النصرانية الجديدة لا تتصل بعيسى الذى مهد لمحمد صلى الله عليه وسلم كما لا تتصل بعيسى الذى بلغ تعاليم ابراهيم وبنيه ، ومن ثم فهى في نظرنا منهج بشرى مستقل بأفكاره عما قبله وعما بعده . . ورسل الله يصدق بعضهم بعضا ويمهد السابق منهم للاحق ما استطاع

ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم . اقامت مفهوم العالمية فيها على ان الدين واحد من الازل الى الابد وان الانبياء اخوة في التعريف بالله والدلالة عليه واقتياد البشرية اليه . . وان القرآن الكريم جمع في سياقه الباقي كل ما تناثر على ألسنة النبيين من عقائد وفضائل ولذلك فان الايمان بهم جميعا مطلوب

والكفر بأحدهم انسلاخ من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم نفسه . ومن الطبيعى ان تبدأ الرسالة عملها في بقعة ما من ارض الله . وقد شرع النبى العربي محمد صلى الله عليه وسلم يعلم الاميين من عبدة الاوثان ، ويرشد الحائرين والجاحدين من أهل الكتاب . وبعد تسعة عشر عاما من الدعوة الدائبة استطاع ان يظفر من الوثنية الحاكمة بحقه في الحياة وحق من يتبعونه في العيش بدينهم والتجمع عليه .

عندما نال هذا الحق في معاهدة الحديبية وأصبح له موضع قدم يستقر فيه ويدعو منه أخذ يرسل الى أهل الارض يبلغهم الحق ويفتح عيونهم على سناه .

ومن أهل الارض يومئذ ؟ الروم غربي الجزيرة وشمالها . والفرس في الناحية المقابلة ، وحكام آخرون يعيشون في جوارهم أو يدورون في فلكهم .

هل كان وراء الرومان من يفهمون الخطاب شمالى اوربا أو وسطها ؟ أو وسط افريقيا وجنوبها ؟ كانت هناك قبائل السكسون والجرمان والغالةوالوندال وقبائل اخرى مشابهة لها في افريقية وكانت هناك وراء الفرس شعوب جاء وصفها في قصة ذى القرنين في القرآن الكريم بانهم لا يكادون يفقهون قولا . .

على اية حال فان النبى المبعوث للعالم ارسل الى امبراطور الروم وملك الفرس وحاكم مصر ونجاشى الحبشة ، والى الامراء المنتشرين حول الجزيرة العربية يدعوهم الى توحيد الله واعتناق الاسلام لعله بدأ بالجيران الذين يلونه فبلغ أمر ربه حتى اذا أتم هدايتهم تجاوزهم الى من يلونهم من أجناس البشر .

أو لعل الفكر البشرى في هذه الآونة لم يبلغ درجة الوعى وأهلية الخطاب الا في هذه البقاع المتحضرة والتى ظهرت فيها جمهرة الرسالات السماوية من قديم .

على أية حال فان اليقظة الانسانية التى بدأت في جزيرة العرب ما كانت نهضة جنس متفوق ولا طماح زعيم متطلع ، بل كانت حركة قبيل من الناس اختارتهم العناية العليا ليربطوا جماهير البشر بالله الواحد ، وليسيروا في هذه الدنيا وفق هداه لا وفق هواهم (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما في السموات وما في الأرض . وويل للكافرين من عذاب شديد .

وأكذب الناس على الله وعلى عباده من يزعم الاسلام طورا من أطوار البعث العربي ، ان هذا الكلام لا يساويه في الرخص والغثاثة الا ما تضمنه من افك وتضليل فان محمدا عليه الصلاة والسلام رفض رفضا باتا أن يكون للعرق ، أو اللون أو القوة أو الثروة أى رجحان في موازين الكرامة الانسانية ، والمحور الذى دار عليه الاسلام هو التوحيد في العبادة والتشريع والوجهة والولاء ، (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته .) وقد قلنا ، ولا نزال نقول : ان الله ربي محمدا عليه الصلاة والسلام ليربي به العرب وربي العرب بمحمد عليه الصلاة والسلام ليربي بهم الناس فرسالة العرب أن يكونوا جسورا لهدايـــات السماء ، وأن يعلموا الخلق ما تعلموه من الخالق .

واذا كانوا تلامذة لخاتم الرسل فهم بما درسوا أساتذة للشعوب الأخرى تتلقى عنهم وتستضئ بهم . .

وهذه المكانة للأمة العربية مكـــانة عالية حقا ، بيد أنها لا تقوم على الدعوى بل على البلاغ ، ولا تقوم على البطالة بل على التضحية ، وذلك معنى قول الله تبارك اسمه .

(هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم) .

وقد قامت دولة الاسلام بدورها العالمى ، هذا على عهد النبوة وايام الخلافة الراشدة وتدافع التيار الى مداه ايام الأمويين والعباسيين والعثمانيين ، وان كان هذا التيار قد شابه من الكدر والدخن ما أزرى به وحط قدره حتى توقف آخر الامر .

والمسلمون في هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية بل ان حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة .

واذكر ان حوارا دار بينى وبين الاستاذ على امين بعد ما كتب يستنكر أذان الفجر ويزعم انه يزعج النيام المستريحين (!) قلت له : ان ايقاظ الناس للصلاة مقصود قصدا وفي أذان الفجر كلمة تقول : الصلاة خير من النوم ! قال : من أراد الصلاة فليشتر منبها يوقظه ليصلى : قلت له ان جمهور المسلمين وهم كثرة هذا البلد يريدون الصلاة علانية ويريدون ان يصبغوا الحياة الاجتماعية بها وأن ينظموا نومهم وانتباههم على أوقاتها فاذا شاء الكسالى

غير ذلك فليتواروا باثمهم لا أن يفرضوه على المجتمع ويطلبوا من المؤمنين التوارى بدينهم ؟

وأشهد أن الرجل لان وتأثر واستكان وأرجو ان يكون قد تاب ومات مغفورا له وانما ذكرت هذا الحوار ليعرف من جهل مبلغ ما انحدرت اليه أمتنا .

ان الشيوعية تريد أن تكون نظاما عالميا ، وكذلك المادية والاباحية ، وكذلك الصهيونية والصليبية أما الاسلام فان طبيعته العالمية يراد انكارها ، واذا تم ذلك فان وجوده المحلى ينبغى الخلاص منه والاجهاز عليه . .

وأريد أن نعرف : من نحن ؟ وما ديننا ؟ وما هدفنا ؟ وما طبيعة جهادنا ؟ اننا ورثة الاسلام وحملته واصحاب الحضارة الوحيدة التى تعترف بالدنيا والآخرة والروح والجسد والعقل والعاطفة .

وفي قرآننا وسنة نبينا صلاحنا وصلاح العالم من حولنا ، وقد هنا على انفسنا فكان طبيعيا ان نهون على غيرنا ، وزهدنا في ديننا فكان طبيعيا أن يزهد العالم فيه .

وقد بدأت في الأفق تباشير عودة ناجحة الى هذا الدين العظيم ، فلنصور بدقة طبيعة النور الذى خصنا الله به ، طبيعة الرسالة التى شاء الله ان تحق الحق وتبطل الباطل ، وتهدى الحيارى في المشارق والمغارب . ويفرض علينا هذا المعنى امورا ذات بال . .

أولها : ما دام محمد عليه الصلاة والسلام للعالم كله وليس للعرب خاصة فيجب على العرب — وهم الذين تحدث محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم وكلفوا بنقل رسالته الى غيرهم — يجب عليهم أن يوصلوا هذا القول الى كل قبيل من الناس وبكل لغة يتم التفاهم بها . .

أى أنه يجب عليهم أن يتقنوا كل اللغات العالمية ، وما استطاعوا من اللغات المحلية وان يودعوها خلاصة كافية هادية من تعاليم الاسلام في مجال العقيدة والخلق والعبادة وشتى أنواع المعاملات وان يذكروا بدقة ولطف الفروق الكبيرة بين أصول الايمان عندنا وعند أهل الاديان الاخرى سماوية كانت أو أرضية . .

إن هذا الواجب لم يكن منه بد حتى لو كان الميدان خاليا لنا وحدنا ، فكيف وهناك أجهزة عالمية مخوفة تخصصت في تحقير الاسلام وإهانة نبيه ؟ عليه الصلاة والسلام . فكيف وقد تآمرت على الاسلام شتى القوى ، وتألب خصـوم خبـثاء يصطادون الشبه ويتلمسون للابرياء العيوب ؟

ان الاستعمار سخر أجهزة إلحادية وصليبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر ، وتركت في نفسه سموما ضد محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وانتهزت الصمت الذى خيم على أجهزة الدعاية الاسلامية والسلبية المشينة التى لذنا بها وراحت تكذب وتكذب حتى نجحت في تلويث سمعتنا وقدرت على غرس تدين مختل الاصول مضطرب السلوك ، وأمكنها بسهولة ان تصد عن سبيل الله وتردم معالم الصراط المستقيم . ان ذلك يوجب علينا الاحساس المضاعف بخطئنا وتخلفنا ويحملنا عبء المسارعة الى تعليم الجاهل ومراجعة المخدوع وتعريف الناس بربهم الواحد الاحد الفرد الصمد ، وربطهم بالدين الذى حمل رايته جميع الانبياء ثم نقاه وشد دعائمه وثبت أهدافه النبى الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وخلم .

والامر الثاني : المتصل بعالمية الرسالة يرجع الى اللغة العربية . فلغة الرسالة الخالدة يجب أن تتبوأ مكانة رفيعة لدى أصحابها ولدى الناس أجمعين ، فان الله — باختياره هذه اللغة وعاء لوحيه الباقي على الزمان — قد أعلى قدرها وميزها على سواها والواقع أن اللغة العربية مهاد القرآن وسياجه فاذا تضعضعت واقصيت عن أن تكون لغة التخاطب والآداء ولغة العلم والحضارة أوشك القرآن نفسه ان يوضع في المتاحف ولهذه الغاية الخاسرة تعمل فئات غفيرة من المستعمرين واذنابهم . وما اكثر أوائك الأذناب في الجامعات والمجامع ودور الاذاعات والصحف وغيرها ؟

إن آباءنا عليهم الرضوان نشروا اللغة العربية بكل الوسائل المتاحة لهم ، وما تأسست مدرسة لخدمة الدين الا انقسمت علومها بين مناهج الشريعة ومناهج اللغة والادب . . ويلاحظ الآن انكماش مفزع في هذا الميدان ورواج سمج للهجات العامية والمصطلحات الاجنبية والترجمات الركيكة والكلمات الدخيلة . .

واللغة العربية لا تخدم بالحماس السلبى ، بل لابد من اعادة النظر في شئون شتى تتصل بكيانها وتعاليمها .

ولنفرق من الان بين طرق تعليمها للتلامذة العرب وللتلامذة الاجانب ، ولنبتكر أساليب ميسورة لتدريس المصادر وتصريف الافعال وجموع التكسير وانواع المترادفات وغير ذلك مما يعانيه طلاب العربية . .

ان هناك لغات لم يشرفها الله بوحى ،

ولم تصحب حضارة انسانية مشرقة يخدمها أبناؤها بذكاء نادر فما دهى العرب حتى تركوا لغتهم توشك ان تكون من اللغات الميتة او الثانوية في هذه الدنيا ؟

اننا عجزنا عن جعل اللغة العربية لغة اولى بين الالف مليون مسلم الذين يعتنقون الاسلام وهذا وحده فشل ذريع نؤاخذ به يوم الحساب ، ويرجع هذا الفشل الى أن العرب أنفسهم لا يجلون لغتهم . بل لقد استطاع الاستعمار الثقافي ان يكرهها لهم او يحقرها لديهم فأى بلاء هذا ؟ والمطلوب الآن للفور اقصاء اللهجات العامـــية والرطانات الأعجمية عن جميع منابر الصحافة والاعلام واعادة الحياة الى اللغة الفصحى في كل محفل . .

واكرر مطلبا آخر ذكرته في أحد المؤتمرات وهو انشاء مدارس وارسال بعثات لنشر اللغة العربية وحدها أى دون ربط اللغة بالدين ، فان هذا التعليم المجرد سيوسع القاعدة الثقافية للغة القرآن وسيكون يوما ما رافدا من روافد الحق والايمان .

والأمر الثالث والاخير في عملية الدعوة يتصل بالوضع الادبي والمادى داخل الامة الاسلامية نفسها ان الخلق الزاكى لغة انسانية عالمية تعجب وتقنع ، وبهذه اللغة تفاهم الصحابة والتابعون مع الشعوب التى عرفوها وعرفتهم فدخل الناس في دين الله أفواجا .

أى أن القدوة الحسنة فردية كانت أو جماعية تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها وهذه القدوة ليست دورا تمثيليا يؤدى بالخداع واجتذاب المشاهدين كلا كلا فحبل الكذب قصير إن هذه القدوة هى الحلاوة في الثمرة الناضجة أو الرائحة في الزهرة العاطرة ، أى هى نضج الكمال الذاتي وقد شاء الله ان يؤتي السلف الصالح انصبة جزلة من هذا الحسن الذاتي ففتحت لهم المدن العظام ابوابها وألقت اليهم الجماهير بقيادها . .

وانى أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائحين والسائحات يجوبون بلادنا ويدرسون أحوالنا ، ثم يجاوزوننا بقلة أكتراث أو باستهانة بالغة .

انهم لا يـــرون — فيما يشهدون — الاسلام الحق في نظافته وسموه . بل يرون شعوبا أقل منهم كثيرا في المستوى الحضارى ولا أقول في المستوى الخلقى المعتاد .

وتلك احوال تصد عن الاسلام ولا تغرى باعتناقه ، وعالمية الاسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالاكبار . أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الاسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة ، وما أكثرهم في أرض الله .

الدين الحق

لفضيلة الدكتور عبد المنعم حسنين - الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية

إن الدين الحق اتباع يظهر في السلوك والعمل ، وليس قولا وادعاء لا يطابقهما الفعل ، قال الحسن البصرى رحمه الله : « ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الاعمال » .

الدين الحق اساسه الايمان ، والايمان تصديق بالجنان واقرار باللسان وعمل بالاركان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث متفق عليه : « الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق .

وقال صلوات الله وسلامه عليه في حديث صحيح رواه ابو داود وابن حبان والحاكم واحمد وغيرهم : « أكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا » .

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث رواه مسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان »

وقد كثر الآن المتحدثون باسم الدين والمتجرون به في الاقطار الاسلامية المختلفة ، وارتفعت اصوات هؤلاء ارتفاعا غطى على أصوات المؤمنين الصادقين الذين يدينون دين الحق ، واصبح الاتجار بالدين حرفة رائجة في البلاد الاسلامية ، والعجيب ان كثيرا من الناس في انحاء مختلفة من العالم الاسلامى يظهرون الحرص على التمسك باحكام الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتظاهرون بأنهم يحملون امانة الدعوة الى دين الله ، ويتشدّدون في نقد من يخالف الكتاب

والسنة في أمر من الامور ، ولكن اعمالهم تخالف اقوالهم وباطنهم يختلف مع ظاهرهم ، انهم يقولون ما لا يفعلون .

والذين يتكلمون ولا يعملون كلامهم كالطبل الاجـوف يقلق ولا يرشد ، لان الدين الحق يرى في سلوك المتدينين به ، والداعية يكسب لدعوته بسلوكه اكثر مما يكسب لها بمواعظه ، فسلوكه هو التطبيق العملي الحي لما يؤمن به ، ويدعو اليه .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول المطبقين لاوامر الله في سلوكه ومعاملاته ، فكان عمله هديا وارشادا وتطبيقا لما انزل عليه وما امر به ، وينبغي أن يكون للمسلمين في رسولهم الامين اسوة حسنة . يقول الله جل جلاله : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (الاحزاب ٢١ .)

ان القدوة العملية تصيب من القلوب اكثر مما تصيب الكلمة مهما كانت طيبة ومؤثرة . ونستطيع ان نأخذ الدروس النافعة الهـادية من سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولقد حدث بعد صلح الحديبية ان رسول صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه ان ينحروا هديهم ويحلقوا رءوسهم فلم يقم منهم احد ، فدخل على أم سلمة فأشارت عليه ان يخرج ثم لا يكلم احدا كلمة حتى ينحر بدنه ويدعو حالقه فيحلقه ، فلما فعل صلوات الله وسلامه عليه قام الناس فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا .

هذه حادثة معبرة اصدق تعبير وأوضحه على ان تطبيق الداعية لما يدعو اليه له تأثير قوى فعال في المدعوين . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من هو لما أمر الناس بالنحر ثم الحلق فلم يستجب له احد ، وأخبر أم سلمة فأشارت عليه بالعمل بدل القول ، فلم يكد الرسول صلوات الله وسلامه عليه يخرج الى القوم ويفعل ما يجب ان يفعل حتى بادر الصحابة رضوان الله عليهم بفعل ما امتنعوا عن فعله حين كلمهم .

أجل ان القدوة العملية تؤثر في الناس اكثر مما تؤثر الاقوال مهما كانت بليغة ، فعلى الدعاة ان يكونوا عمليين اكثر منهم قوالين حتى تثمر دعوتهم ، وينبغي أن تظهر هذه الثمار في بيوتهم وفي دوائر اعمالهم ، فيظهر الدين الحق في سلوك الزوجة والاولاد ، والخدم والاحفاد والمتصلين بالدعاة والمشتركين معهم في عمل من الاعمال .

ان الذى يدعو الى اتباع الكتاب والسنة والتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهديه ينبغى ان يتبع هذا بالتطبيق العملى لما يدعو اليه ، فيظهر هذا التطبيق في سلوكه وجميع اعماله ، وان يلزم المتصلين به والعاملين معه بتطبيق ما يدعو اليه وما يطبقه هو ، وكل تقصير في التطبيق مدعاة للسخرية والاستهزاء ، وسبب في ان تصير الدعوة غير مجدية ، وغير مؤثرة في القلوب ، لان الدعاة اذا لم توافق اعمالهم اقوالهم كانوا دعاية سيئة لما يدعون الناس اليه .

ان دعوة الناس الى الخير ، تقتضى ان يكون الدعاة سباقين الى الخير ، ومطالبة الناس باتباع الكتاب والسنة تستوجب ان يكون الدعاة متبعين للكتاب والسنة في جميع اعمالهم ، ونهى الناس عن منكر يحتم ان يكون الناهون ملتزمين لذلك النهى مبتعدين عن المنكر في افعالهم .

ولهذا اوصى الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى سأله ان يقول له في الاسلام قولا فصلا بقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

ووصية الرسول هذه وصية جامعة لان اعلان المسلم الايمان بالله اثبات لولائه لله رب العالمين ، واستقامة المؤمن دليل على صدقه في اعلانه الايمان بالله ، وذلك بالتطبيق العملى الدال على صدق القول والاعلان . وقد بشر الله جل جلاله الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بالجنة في قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون » (فصلت : ٣٠ .)

فالدين الحق تطبيق وعمل ، واتباع لما أمر الله به ، واجتناب لما نهى الله عنه واهتداء بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما الذين يقولون ما لا يفعلون فهم اخطر على الاسلام من أعدائه ، لانهم يلبسون زى الدعاة ، ويتظاهرون بانهم يحملون امانة الدعوة الى دين الله ، ويطالبون الناس بالاستقامة ويامرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ثم تكون اعمالهم منافية لاقوالهم ، فبينما تراهم ينتقدون الناس اذا خالفوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في امر من الامور اذا هم في سلوكهم ومعاملاتهم يخالفون الله ورسوله ، فلا يعدلون اذا حكموا بين الناس بل يميلون مع الهوى ، ويستبيحون لانفسهم الظلم واكل حقوق الغير ، ويساندون العاملين تحت امرتهم اذا ظلموا واغتالوا حقوق الناس وحكموا بغير ما انزل الله ، ولا يلزمون

اهليهم بما يدعون الناس اليه ، ولا ينتقدون اولادهم اذا ارتكبوا امرا منكرا من الامور التى يشددون في انتقادها اذا ارتكبها غيرهم .

هذا في الواقع ما ابتلى به المسلمون في كثير من أقطارهم . إن هؤلاء المتجرين بالدين يشبهون علماء بنى اسرائيل الذين خاطبهم الله جل جلاله بقوله « اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » البقرة : ٤٤ .

ان الذين يتجرون بالدين اينما وجدوا ينطبق عليهم قول ربنا سبحانه وتعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » الكهف : ١٠٣ — ١٠٤

ان مخالفة الداعية في سلوكه لما يدعو غيره اليه امر يتنافي مع العقل والمنطق السليم مما يجعل دعوته تفقد قيمتها وتأثيرها ، بل قد تحدث نتيجة عكسية وهذا هو الخطر الذى يتهدد شباب المسلمين من جهة هؤلاء المتجرين بالدين ، الذين يقولون مـــالا يفعلون .

ان الدين الحق ان يصدق العمل القول ، وان يطبق المسلم في سلوكه وفي كل ما يصدر عنه من افعال ما جاء في كتاب الله وفي سنة خاتم الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

ان الايمان الصادق هو الدافع المحرك للقوى الكامنة في نفس الانسان ، وهو الذى يجعل المؤمن في شوق دائم للعمل بما يرضى الله تعالى ، فيدفعه الى تفضيل اعمال البر ليثقل ميزانه يوم القيامة .

فينبغى على المؤمنين الصادقين الذين يدينون دين الحق ان يقفوا في وجه المتجرين بالدين ، وان يكشفوا زيفهم وضلالهم ، وان يحملوا امانة الدعوة الى دين الله الحق الذى يزيغ امامه كل باطل ، وان يعملوا بقول الله جل وعلا « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » آل عمران ١٠٤

وليعلم المؤمنون الصادقون الذين يدينون دين الحق ان أهل الباطل كالزبد يذهب جفاء ، وان ما ينفع الناس يمكث في الاض .

ولكن على المؤمنين الصادقين ان يعملوا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المصلحة المرسلة

محاولة لبسطها ونظرة فيها *

لفضيلة الدكتور على محمد جريشة
كلية الشريعة

أولا : تقديم وتعريف :

١ – إن الله بالناس لرؤف رحيم ، لم يخلقهم عبثا بل جعل لهم غاية ، ولم يتركهم سدى بل هداهم السبيل وحدد معالمه . . . كل ذلك بما شرع لهم من أحكام في دينه ، وكانت أحكامه محققة لمصالحهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم . . وقد ثبت لدى العلماء من تتبع أحكام الشرع واستقرائها أنها تحقق مصالح خمسا وتحافظ عليها هى الدين والنفس والعقل والنسل والمال وهى في تحقيقها لهذه المصالح تتدرج بين مراتب ثلاثة :

هى الضرورات : وهو لابد منها لاقامة هذه الخمسة وحفظها ، والحاجيات وهى وإن لم تلزم لقيام الخمسة فإنها تلزم لرفع الضيق والحرج عند الأخذ بها ، والتحسينات وهى ليست بلازمة لقيام هذه المصالح ولا لدفع الضيق والحرج عند الأخذ بها ولكنها استكمال لحسن الأمر وتحقيق لصالح الخلق (١)

وتقف كل مصلحة من المصالح الخمسة مكملة للتى تسبقها وخادمة لها ، كذلك تقف كل مرتبة من المراتب الثلاثة مكملة للتى تسبقها وخادمة لها .

ففى المصلحة الأولى وهى الدين تقف في المرتبة الأولى الضرورات ، وفي

---

* يذكرها البعض فى بحوث «أدلة الاحكام الشرعية» ويتناولها اخرون تحت عنوان مصادر الاحكام الشرعية . ويظنها الكثيرون خروجا على الكتاب والسنة . وسوف نرى بمشيئة الله كيف يمكن بيسر ردها الى الكتاب والسنة .

(١) المستصفى للغزالى جـ ١ ، ص ٢٨٣ ، رسالة دكتوراه للاخ الدكتور محمد سعيد البوطى ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥ صفحات ٧٨ وما بعدها ص ١٨١ ، ١٨٥ – ١٨٧ .

مقدمتها شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلابد من إقامتها لاقامة الدين ، ولو أدى ذلك إلى التضحية بالمصلحة التى تليها وهى النفس ، وذلك عن طريق الجهاد اعلاءً لكلمة الله ، وتمكينا لدينه . .

ومن الحاجيات المكملة لاقامة الدين ما شرعه الله من تيسير في بعض أحكامه ، رفعا للعنت والحرج (١) ومنعا من الضيق والملل ، كأداء الصلاة قعودا لمن كان ذا عذر ،وقصرها للمسافر وما شرع الله من عقود وأحكام للمعاملات .

ومن التحسينات المكملة لاقامة الدين ما ينبغى أن يتحلى به المسلم من خلق العفو والصفح الجميل ودرء السيئة بالحسنة .

ووقوف المصلحة وراء كل حكم أنزله الله أمر يراه كل ذى بصيرة فإن خفيت فإيمان المسلم ويقينه بأن الله لا يريد به إلا اليسر ، ولا يشرع له إلا الحق والخير . . كل ذلك كاف لأن ندرك ما قرره علماء الشريعة من أن وراء كل حكم شرعى مصلحة .

والقول بأن وراء كل مصلحة حكم شرعى (٢) ينبغى أن يتقيد بالشروط والقيود التى سنشير إليها ، وإلا فليست كل مصلحة يتصورها إنسان يمكن أن ينبنى عليها حكم شرعى

٢ — والمصلحة التى يورد الشارع حكما يحققها تسمى مصلحة معتبرة (٣) وتلك التى يأتي النص بعدم اعتبارها تسمى مصلحة ملغاه (٤) .

والتى لم يعتبرها الشارع ولم يلغها هى المصلحة المرسلة (٥) — وهى موضوع هذا البحث .

---

(١) دفع الحرج غالبا يكون تحقيقا لحاجة لكنه قد يكون ضروريا اذا تعارضت مصلحة شخصية مؤكدة مع محرم لغيره لا محرم لذاته ، ذلك أن المحرم لذاته لا يباح الا لضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وأكل مال الغير أما المحرم لغيره فهو يباح للحاجة ولا يشترط الضرورة ، فرؤية عورة المرأة محرم لغيره لا محرم لذاته اذ هو محرم لما قد يفضي اليه من زنى .. لذلك أجيز للطبيب رؤية عورة المرأة لحاجة المرض .

« موسوعة الفقه الاسلامى — جمعية الدراسات الاسلامية ، اشراف الشيخ محمد أبو زهرة ص ٥٠ ، ٥١ »

(٢) من العبارات الجارية « اذا وجدت المصلحة فثم شرع الله » وهذه ان تركت بغير قيود كانت خطأ اذ ليس كل مصلحة — أيا كانت — تحقق شرع الله ، ولكن ان فهمت مع قيودها وضوابطها كانت صحيحة على النحو الذى سنشير اليه — راجع عز الدين بن عبد السلام ، قواعد الاحكام فى مصالح الانام ج ١ ص ٤

(٣) مثلها ما شرعه الله من افطار المسافر والمريض فقد أردف ذلك بقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وما شرعه الله من قصاص لتحقيق حياة رافهة بالحق والعدل فاكهة بالامن والطمانينة « ولكم فى القصاص حياة يا أولي الالباب » .

(٤) ومثلها ما قد يظنه البعض مصلحة ، لكن الشارع الحكيم نهى عنه .. مثل الربا والزنى وشرب الخمر .

(٥) راجع أمثلة كثيرة للامام الشاطبى فى الاعتصام ج ٢ ص ٢٨٧ — ٣٠٤٠ وراجع قبلها حديثه عن المصلحة أو الاستدلال المرسل ص ٢٨٣ — ٢٨٧

ثانيا: حجية المصلحة المرسلة :

٣ – الوحى – قرآنا وسنة – ليس فقط هو المصدر الأول للأحكام ، بل هو المصدر الوحيد للأحكام . .

فكيف يتفق ذلك مع ما يعدده الأصوليون من مصادر تقارب العشرة أو تجاوزها ؟ ووظيفة الاجماع أنه يقوى من هذا الدليل . . والقياس تعرية للحكم الشرعى – الوارد في الكتاب في الكتاب أو السنة – إلى واقعة أخرى لم يرد فيها نص ، لاتحاد العلة في الواقعتين .

أما المصلحة . . فهى – كما سيبين بإذن الله – لون من القياس على النصوص في مقاصدها ومعناها ، وليس في عبارتها ومبناها ، أو هى بعبارة أخرى . حكم بروح النصوص ومقاصدها وليس حكما بعبارتها وألفاظها .

٤ – بيد أن الأمر ليس بهذه السهولة التى أشرنا إليها . . فإنّ دليلا من الأدلة لم يثر جدلا عنيفا ولا غموضا شديدا ، ولا تطرفا ذات اليمين وذات اليسار . . كما أثارت المصلحة المرسلة . .

فالبعض أفرط فقدمها على النصوص .

والبعض فرط فرفضها رفضا مطلقا .

وبين هذا الفرث والدم . . كان رأى الجمهور وسطا سائغا للفاقهين . .

٥ – وقبل أن نشير إلى هذه الثلاثة نقول إن المصلحة لا عمل لها في دائرة العقيدة لأنها مبنية على اليقين ، والمصلحة لا تفيد إلا الظن ، كذلك لا عمل لها في ميدان العبادات .

(الشعائر والنسك) لأن نصوص القرآن والسنة جاءت مفصلة لها ومبنية ، فضلا عن أن أغلب أحكامها ليس له ظاهرة أو مصلحة واضحة لأنها أساسا جاءت اختبارا لمدى طاعة العبد ، ويأخذ حكم العبادات ما جرى مجراها من حدود ومقدرات وسائر ما استأثر الله بعلم تفصيلات المصلحة فيه (١) .

أ – المصلحة بين الافراط والتفريط :

---

٦ – تنازع التطرف المصلحة فالبعض قال بتقديمها على النصوص ، والبعض قال برفضها . . ولكل وجهة هو موليها وتشير الى الطرفين وحججها .

---

(١) الاجتهاد بالرأي للمرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف ص ٨٢، سلم الوصول لعلم الاصول للشيخ عمر عبد الله ص ٣١١، ٣١٢

٧ ــ أما الافراط فيحمل لواءه نجم الدين الطوفي ــ الذى قيل إنه حنبلى لكن التحقيق أنه يميل إلى التشيع (١) ــ وقد عرض لرأيه في معرض شرحه لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » (٢) ، وقال إنه يرى الأدلة الشرعية تسعة عشر دليلا جعل في مقدمتها النص والاجماع واعتبرها أقواها ، ولكنه عاد فقال إن المصلحة تتقدم النص والاجماع إذا تعارضت معه (٣) .

ولم يشأ نجم الدين الطوفي خلال عرضه الطويل أن يقدم مثلا واحدا لتعارض النص مع مصلحة حقيقية !

وبغض النظر عما ثار حول عقيدته ، فإن رأيه يناقض بعضه بعضا ، ويتهاتر أوله مع آخره حتى يسقط عن مستوى الاستدلال . . فإنه بعد أن صرح بتقدم النص والاجماع عاد فصرح بتقدم المصلحة على النص والاجماع ، وهو وإن أجعل التعارض شرطا . . فإنه لم يستطع ن يقدم مثلا واحدا للتعارض !

فضلا عن أنه إذا تعارضت المصلحة مع النص . . فإنه يسقط الاستدلال بها إذ تغدو مصلحة ملغاة . . لا مرسلة ولا معتبرة !

٨ ــ وقد نسب إلى الامام مالك أنه قال إن المصلحة تخصص عام القرآن وتقيد مطلقه (٤) ، وليس في أصول الامام مالك ولا فقهه ما يؤيد ذلك .

كذلك نقل عن الامام مالك أنه قال بتعذيب المتهم لاجباره على الاقرار ــ استنادا للمصلحة المرسلة ــ وقد ثبت بالتحقيق أنه ليس رأيا للامام مالك ، وأن هناك رأيا لسحنون في هذا الموضوع لكنه حرف و نقل على هذا النحو ، ثم حُرف ونسب إلى الامام مالك (٥).

هذا بعض عن جانب الافراط .

٩ ــ أما جانب التفريط : فقد ذهب

---

(١) انفرد نجم الدين الطوفى دون سائر الحنابلة بهذا الرأي ، وقد نقل ابن رجب فى طبقاته (ج ٢ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧) وابن عماد فى شذرات الذهب (ج ٦ ص ٢٣٩) أن نجم الدين الطوفى انحرف الى التشيع ثم الرفض ، وقد حاول الدكتور مصطفى زيد فى رسالته الدفاع عنه ، وعلق على ذلك الامام محمد أبو زهرة .. فان النصوص التى نقلها مستشهدا بها لنفي التشيع تطوي فى ثناياها دليل اثباته ، وكل نص ساقه دليلا للنفي هو فى مغزاه ومرماه وباعثه دليل الاثبات (المصلحة ونجم الدين الطوفى ص ٩) وينقل الدكتور معروف الدواليبي أن الشيعة أنفسهم يتبرأون من نجم الدين الطوفى فقد قال عنه الشيخ عبد الحسين شرف الدين شيخ علماء جبل عامل وامامهم : « وسليمان الطوفى من الغلاة الذين ما زالت خصومنا تحملنا أوزارهم » (علم أصول الفقه للدواليبي ٢١٥ ، ٢١٦) ولا يفوتنا بعد ذلك الاشارة الى ماذكره بعض المؤرخين من أنه تاب عن الرفض والتشيع (البوطى ص ١٤٣) ومع ذلك فانه يتحمل أمام الله والتاريخ مسؤولية تلك الفتنة التى أثارها والتى ما زال صداها يجلجل به أعداء الاسلام .

(٢) ، (٣) الدكتور مصطفى زيد ، ومن رأي الطوفى بعض المحدثين الذين سنشير اليهم فيما بعد ان شاء الله .

(٤) محمد أبو زهرة ، أصول الفقه ص ٢٧٤ ، المرحوم عبد الوهاب خلاف فى علم أصول الفقه ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، الدواليبى ص ٢١٥ .

(٥) البوطى ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٤٧

إليه أولئك الذين رفضوا المصلحة نهائيا(١)

ولأهمية هذا الحكم ، ولسقوط كثير من حكام المسلمين في هذا الاثم نذكر شيئا من التفصيل ، فنقول بعون الله :

. إن الرجـــوع إلى كتب المذهب تكشف خطأ نسبة هذا الرأى إلى مالك ، بل تثبت عكس ذلك تماما فهو يقول « لا أقيم الحد إلا أن يقرر بذلك آمنا لا يخاف شيئا (المدونة — جـ٦ . ص ٩٣ طبعة السعادة) .

. والذى يبدو أن الرأى حرف عن سحنون ! إذ قال : « إن إقرار المتهم في حبس سلطان عادل اقرار صحيح » لكن تفحص العبارة يفيد عكس التحريف الذى فهمت به ، فهو يقيد صحة الاقرار بعدالة السلطان إن كان المتهم محبوسا . . مما يفاد منه أنه إذا كان ثمة اقرار لسجين في سجن سلطان غير عادل فلا قيمة له . . لأن السجن في مثل هذه الحالة يمثل لونا من الاكراه يشوب الاقرار ومن ثم يغدو مرفوضا ، وإذا كان السجن يشكل وحده لوناً من الاكراه . أفلا يشكله التعذيب ؟ !

. ويشير الامام الشاطبي في الاعتصام (جـ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ — مطبعة المنار بمصر) إلى نفس الرأى السابق وينسبه إلى الامام مالك ويشير إلى أن العذاب المقصود هو السجن ، ونحسب أن الشاطبي بذلك نقل رأى سحنون على أنه رأى مالك فهو الذى رأى أن إقرار المتهم في حبس سلطان عادل يعتد به ، وهو ما أشرنا إلى أنه يفيد عكس ما يقررون ، ومع ذلك فقد أضاف الشاطبي إلى أن أصحاب مالك مضوا على الضرب لامكان استخلاص الأموال من أيدى السراق والغصاب وأشار نقلا عن الغزالى إلى أن الامام الشافعى لا يقول بذلك . (ص ٢٩٥ نفس المرجع) .

. ولقد نعلم أن البعض قد يحاجج بما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر إذ أمر الزبير أن يمس عم حيي بن أخطب بعذاب ليعترف على ما خبأه ابن اخيه ، وبيان ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل في غزوة خيبر فصالحوه على أن يجلو ا منها **ولهم ما حملت ركابهم** ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم **الصفراء والبيضاء**،

(١) وهم القاضى أبو بكر الباقلاني والامدي من الشافعية وبعض الظاهرية ، ولين صحيحـــا ان الغزالي منهم (البوطـــى ٢٩٥ ، ٢٠٣ ، الاعتصام للشاطبى جـ ٢ ، ص ٢٨٢) .

واشترط عليهم **ألا يكتموا شيئا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد:** ومع ذلك فقد غيبوا مسكا فيه مال ، وحلى لحيي بن أخطب كان قد حمله إلى خيبر حين أجليت النضير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعم حيي بن أخطب : ما فعل مسك حيي الذى جاء به من النضير ، فقال أذهبته النفقات والحروب ، فقال : العهد قريب والمال اكثر من ذلك ، فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسّه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل قرية ، فقال قد رأيت حيبا يطوف في خربة ها هنا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابني اخ الحقيق وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أبي أخطب ، وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذى نكثوا (عن زاد المعاد لابن القيم الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ جـ٢) .

. ونحن نلاحظ على هذه الرواية التى قد يحاجج بها البعض ليجعل للتعذيب شرعية :

١ ــ أن الأمر كان في حالة حرب بين مسلمين وغير مسلمين .

٢ ــ أن العذاب لم يقع على أحد من المسلمين ، وإنما وقع على يهودى محارب .

٣ ــ أن النصوص كثيرة متواترة على حفظ دم المسلم وعرضه وماله ، بل إن بعضها يجعل حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة بيته المحرم

٤ ــ أنه قد بدر من الفريق الآخر بعد الصلح نكث للعهد ولذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقتل والسبي

٥ ــ أنه ليس هناك ما يفيد في هذه الرواية أن ما وقع على عم حيي بن الأخطب كان لحملة على الاعتراف ، بل الأرجح أنه كان عقابا على كذبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله ، وعلى نكثه العهد حين اشترط عليهم الرسول ألا يكتموا وألا يغيبوا ! وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بالقتل والسبي جزاء على ذلك فإن الضرب جـــزاء دون ذلك الجزاء !

* * *

وقد يكون هذا التفريط رد فعل لذلك الافراط ، لكنهم يبررون ذلك بما يلى :

١ – أن الله سبحانه إذ قرر « أيحسب الانسان أن يترك سُدىً » قد كفل له من الاحكام ما يكفل له تنظيم حياته دون حاجة إلى جديد « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الاسلام دينا »

٢– أن المصالح الحقيقية هى التى وردت بها الأحكام ، وما لم يرد به حكم فليس بمصلحة «والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

٣ – أنها مظنة الحكم بالهوى ما دامت ليست معتبرة من الشارع ، بل هى مترددة بين الاعتبار والإلغاء وفي هذا يقولون إنها ما دامت مترددة بين الاعتبار والإلغاء فإن انحيازها إلى جانب الاعتبار ليس أولى من انحيازها إلى جانب الالغاء .(١)

ب. المصلحة المرسلة عند الجمهور :

١٠ – شاع لدى البعض أن الامام مالك – وحده هو الآخذ بالمصالح المرسلة كدليل من أدلة الأحكام الشرعية (٢)وأضاف البعض إليه الامام أحمد .

لكن النظر الدقيق يثبت أن الأئمة الأربعة أخذوا بها وإن كان ذلك تحت مسميات أخرى فالعبرة بالمعنى قبل المبنى .

فالامام الشافعى عالجها تحت باب القياس وهذا في رأيي نظر ثاقب من الامام الشافعى لأن المصلحة قياس معنى وإن لم تكن قياس لفظ كما سيبين إن شاء الله والامام أبو حنيفة عالجها تحت باب الاستحسان والعرف (٣) . . والمصلحة قريبة من الاستحسان . .

وعلى ذلك يمكن أن نقول أن المصلحة كدليل شرعى مسلم بها من جمهور الفقهاء .

١١ – ودليلهم في ذلك :

(١) أن الشارع دلّ عليها على سبيل الاشارة ، حين بين لنا الأحكام وكشف

---

(١) الشيخ محمد زكريا – أصول الفقه ص ٢٣٩ ، الدكتور عبدالحميد متولي – مبادىء نظام الحكم فى الاسلام ص ١٢٢ ومن نقلوا عنهم .

(٢) الرسالة للشافعى ٥١٥ ، عبد الوهاب خلاف – ص ٨٣ ، ٥١٦ ، الاجتهاد فى الرأي للمرحوم عبدالوهاب خلاف ص ٨٣ .. سلم الوصول الى علم الاصول للشيخ عمر عبد الله ص ٣١٥ – وراجع كذلك ابن حجر فى فتح المبين لشرح الاربعين ص ٩٤ ط ، الزنجانى فى تخريج الفروع على الاصول ص ١٦٩ – ١٧١ . الغزالى فى كتابه المنخول – مخطوط – ورقة ١٣١ – ١٣٣ (تحت رقم ١٨٨ بدار الكتب المصرية)

في بعضها عن المصالح التى تتحقق من ورائها . . فكأنه سبحانه . بذلك يدل على أن وراء كل حكمة مصلحة ، وكأنه بذلك سبحانه يدلنا على أن نقيس على المصالح ، فبعد أحكام الصيام نجد قول الله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وبعد أحكام الوضوء نجد قول الله « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكم » وعن الصلاة يقول سبحانه « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »

وفي تحويل القبلة يقول سبحانه « لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم . وفي القصاص قول الله سبحانه « ولكم في القصاص حياة يا أولى الالباب »

فماذا على الناس بعد ذلك أن يرعوا المصالح التى أرشد إليها رب الناس ؟

(٢) إن المصالح تدور في فلك مقاصد الشارع التى استقرئت من أحكامه وهى :

الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

وبالنظرة الفاحصة فإن الأخذ بالمصلحة على هذا النحو يمثل لونا من القياس على النصوص ليس في عبارتها ومبناها ولكن في مقاصدها ومعناها ..(١)

فهى ليست كما ظن البعض انفلاتا من النصوص أو خروجا عليها أو حكما بالرغبة والهوى والتشهى وإنما هى حكم بالنصوص بروحها ومقاصدها إلى جوار ألفاظها وعباراتها .

وهى بذلك تحقق شمولا واتساعا ومرونة هى سر من أسرار خلود هذه الشريعة .

(٣) سلك الصحابة سبيل الاجتهاد بناء على المصلحة ، فجمع أبو بكر المصحف ودوّن عمر الدواوين وسك العملة ، وعلىّ ضمّن الصناع وقال « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

و الصحابة في ذلك لا يصدرون عن رأى مجرد أو هوى متبع ، وإنما يصدرون عن القرآن الذى تلقوه ، والنبى صلى الله عليه وسلم الذى تعلموا على يديه ، ومسلكهم في هذا السبيل نقتدى به ونقتفى أثره عملا بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

ولقد وقع البعض في خطأ كبير إذ ظنوا أن الصحابة كانوا يعملون المصلحة ولو صادمت النصوص .

---

(١) فى هذا المعنى يقول الاستاذ محمد أبو زهرة .. المصلحة من جنس المصالح التى أقرها الاسلام فهى رجوع الى عموم المقاصد التى أخذت من النصوص (تاريخ المذاهب الفقهية ـ ج ٢ ف ص ٤٠٠)

(٤) ان النصوص — كألفاظ وعبارات قد تتناهى ، وحاجات الناس لا تتناهى والمصلحة كقياس — معنوى — إلى جوار القياس اللفظى تحقق الاتساع والشمول الذى يكفل مواجهة الحاجات المتجددة .

١٢ — وهذه الحجج نفسها تتضمن الرد في نفس الوقت على حجج من رفضوا المصلحة ، إذ قامت أغلب حججهم على اقتراض خروج المصلحة عن دائرة النصوص والأحكام الشرعية ، ومن ثم ظنوها حكما بالهوى ، أو اعتبروها خروجا على الدين بعد إذ اكتمل ، وهو ما رأيناه داحضا بعد أن بلغنا إلى اعتبار المصلحة لونا من القياس على روح النص ومبناه ، فليس ثمة خروج فيها على النصوص . .

أما قول الأولين إن انحياز المصلحة المرسلة الى جانب الاعتبار ليس بأولى من انحيازها الى جانب الالغاء . . فمردود بأن هذا الانحياز راجع الى أن ما تحققه المصلحة المرسلة يضاهىٔ ما تحققه المصلحة المعتبرة ، وأن المصلحة المرسلة تدور في فلك نفس المقاصد التى تدور فيها المصلحة المعتبرة .

ج — شروط المصلحة :

١٣ — المصلحة عند الجمهور قائمة على أسس يصح أن تعد شروطا فهى :

(١) لا تصادم نصوصا ولا إجماعا .

وإلا كانت مصلحة ملغاة ، لأن معنى إرسالها أن الشارع لم يُلْغها ولم يعتبرها

(٢) أن تحقق أحد المصالح الخمسة : الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، أى أن تكون المصلحة من جنس هذه المصالح .

(٣) أن تكون حقيقية وعامة .

لأنها إن لم تكن حقيقية كانت وهما ، والوهم لا ينبنى عليه حكم شرعى .

وإن لم تكن عامة كانت خاصة ، والأحكام في الشريعة لا توضع لفرد ولا لبعض وإنما هى للناس كافة بغير تفرقة .

وهذه الشروط في حقيقتها مستمدة من طبيعة المصلحة ، ومن كونها دليلا شرعيا .

١٤ — ولقد أضاف البعض إلى ذلك شروطاً أخرى :

فقد نقل عن الشافعى أنه يشترط فيها أن تكون « شبيهة بالمعتبرة »

ونقل عن الغزالى اشتراطه كونها « ضرورية » .

أما شرط الشافعى فهو في حقيقته الشرط الثاني الذى أشرنا إليه أن تكون

من جنس المصالح التى جاء بها الشرع . . وبهذا تكون شبيهة بالمعتبرة .

وأما شرط الغزالى أن تكون المصلحة ضرورية (١)

فإنه قد يشعر بحصر نطاق العمل بالمصلحة المرسلة على مرتبة الضروريات دون سائر المراتب الأخرى (الحاجيات والتحسينات) وذلك قد يصح إذا اقتصرنا على أحد مؤلفاته « المستصفى » لكن هذا الظن قد يتبدد إذا رجعنا إلى سائر مؤلفاته (٢)

ولعل ما جاء بالمستصفى كان بيانا لما هو موضع اتفاق بين الجميع ، إذ يعمل بالمصلحة الضرورية عند جميع الفقهاء بلا استثناء ، وذلك في ظننا راجع إلى القاعدة الأصلية « الضرورات تبيح المحظورات » (٣)

كذلك قد يكون الغزالى في معرض بيان الترجيح بين مصلحة ضرورية وأخرى أوفي منها فهو يخص الضرورية بالعمل والتقديم . .

ولقد يكون ما ضربه الغزالى مثلا دليلا على ذلك ، فهو يضرب مثلا بحالة تترس الكفار ببعض المسلمين ، فنحن إزاء مصلحتين : الحفاظ على حياة المسلمين الذين تترس بهم الكفار ، ثم الحفاظ على الدين بهزيمة هؤلاء الكفار وفي مراتب المصالح تتقدم المصلحة الأخيرة على المصلحة الأولى لأنها ضرورية وقطعية (أى حقيقية) وكلية (أى عامة) (٤) .

ثالثا : ما نسب الى الصحابة خطأ حول المصلحة :

١٥ ــ تولى نجم الدين الطوفي كِبرْ تقديم المصلحة على النصوص

وقد قدمنا أن لا مصلحة خارج النصوص وأن المصلحة الحقيقية لا تكون إلا داخل دائرة النصوص في فحواها ومبتناها وأنها إن خرجت . . كانت مصلحة ملغاة لا يعتد بها في مجال الأحكام الشرعية

لكن الذين اقتفوا أثر نجم الدين الطوفي وساروا في دربه استدلوا على صحة القضية بعمل الصحابة ، وعلى وجه التغليب استدلوا بعمل عمر بن الخطاب

---

(١) المستصفى للغزالى جـ١ ص١٤١ وشروطه ان تكون ضرورية ،وقطعية ، وكلية ، والشرطان الاخيران هما اللذان أشرنا اليهما من قبل « أن تكون حقيقية وعامة»،أما الشرط الاول فقد أولناه في المتن

(٢) جمع الجوامع وحاشية البنانى عليه جـ ٢ ص ٢٨٤ ، وشفاء الغليل ص ١٨٨ وفى هذا المرجع أشار الغزالى الى الاخذ بالمصالح فى دائرة الحاجيات ، وفى المنخول ــ ورقة ١٣٥ ــ أطلق الامر دون شروط (راجع الدكتور البوطى ــ المرجع السابق ، الامام الشاطبى فى الاعتصام جـ ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٣ ، ٤) ــ الدكتور البوطى ــ المرجع السابق والاستاذ أبو زهرة اصول الفقه ص ٢٧٢ ، والاستاذ عبد الوهاب خلاف فى الاجتهاد بالرأي ص ٩٤ .

رضى الله عنه ، وقالوا عنه انه كان يقدم المصلحة على النصوص . (١)

وجاوزوا في ذلك الحق والحقيقة . .

فما كان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تربوا في مدرسة الوحى وقدروه حق قدره أن يخرجوا على الوحى عملا بما يسمى مصلحة ! !

ولسان حال هؤلاء الصحابة ما قاله أبو بكر الصديق أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا أنا قلت في كتاب الله برأيي . . فمجرد التأويل بالرأى في كتاب الله وليس خارجه — يعده أبو بكر كبيرة لا يتصور معها أن تقله أرض الله أو تظله سماؤه أما عمر — فهو وإن اجتهد فقد كان يجتهد داخل دائرة النصوص بحثا عن حكم الله أما أن يخرج على النصرص تفضيلا للمصلحة عليها . .

فهذا لا يتصور من عمر . . لأن معنى ذلك أن يتقدم برأيه على الوحى وهو الذى يتلو قول الله « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، وهو الذى ضرب رأس منافق راح يحتكم إليه بعد أن احتكم إلى رسول الله . فقال له عمر بعد أن خرج بسيفه وهوى عليه : هذا حكم عمر فيمن لا يرضى حكم الله ورسوله .

ولو دقق أولئك الباحثون فيما احتجوا به من أمثلة لوجدوا لها تفسيرا آخر غير أن يقولوا إن الصحابة قدموا المصلحة على النصوص .

ونورد فيما يلى الأمثلة لنناقشها ونتبين قصد عمر منها . .

١ — ابطال سهم المؤلفة قلوبهم :

١٦ — قيل إن عمر رضى الله عنه أبطل سهم المؤلفة قلوبهم الوارد في مصارف الزكاة في الآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين والمؤلفة قلوبهم . .

وذلك اعمالا للمصلحة في مواجهة النص

١٧ — لكن النظرة الفاحصة تكشف غير ذلك

إن لكل حكم مناطاً للتطبيق ، ومناط تطبيق هذا النص هو تأليف القلب ،

(١) راجع الدكتور مصطفى زيدفى رسالته : المصلحة في التشريع الاسلامى ونجم الدين الطوفى — الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ ،ص ٣١ فقرة ٢١ — الاستاذ علي حسب الله ، أصول التشريع الاسلامى ص ١٥٦ الدكتور عبدالحميد متولى مبادىء نظام الحكم فى الاسلام ص ١٢٦ . ولقد كان البعض الاخر اكثر اعتدالا اذ قال ان الصحابة قدموا المصلحة على القياس (الدكتور محمد يوسف موسى : فى التشريع الاسلامى وأثره فى الفقه الغربى ص ٢٥)ولئن كان من الصحابة هذا اللون من التقديم فهو صح استحسانا اذ الاستحسان عدول عن قياس جلي الى قياس خفي ، والمصلحة ضرب من القياس « قياس المعنى » وهى بالنسبة لقياس اللفظ تغدو قياسا خفيا — والله اعلم

وقد نظر عمر فإذا الاسلام قد عز ، ودانت له أكبر امبراطوريتين في العالم . ولم يعد الاسلام بحاجة إلى تأليف القلب أو إلى المؤلفة قلوبهم ، وإذا كان النص يدور حول علته وجودا وعدما ، فإن إعمال النص نفسه يقتضى الكف عن اعطاء هذا الفريق من الناس بعد أن عز الاسلام وعزت دولته !

أفليس هذا اجتهاد داخل النص . .؟!

أم يفتات على عمر ويقال إنه قدم المصلحة على النص ؟!

٢ ــ في قتل الجماعة بالواحد :

١٨ ــ قيل إن عمر إذ قرر قتل الجماعة بالواحد قد فعل ذلك بناء على المصلحة مصادمة للنص الكريم « كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد » وقوله « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . »

١٩ ــ ولم يكن عمل عمر تشريعا كما تصور البعض

إنما كان تطبيقا للنص بفهم عميق :

إن التعريف في النفس يعنى « الجنس » ولا يعنى « المفرد » والباء في النفس التالية هى باء السببية . . وعلى ذلك فإن النص يعنى أن كل نفس شاركت في القتل تقتّل بالنفس التى قتلت أى بسبب هذه النفس المقتولة .

وقد فهم ذلك الوضعيون أخيرا حين جعلوا جزاء القتل لكل من ساهم فيه وجعلوا مجرد الوقوف في الطريق العام لملاحظته دون اشتراك مادى في الجريمة تجعل صاحبها فاعلا أصليا يستحق نفس العقوبة . . وما دون ذلك جعلوه شريكا له نفس عقوبة الفاعل الاصلى ولئن تنكب الوضعيون السبيل فلم يجعلوا العقوبة هى القتل إلا في ظروف معينة قلما تثبت ، ومن ثم فلم يعد الناس يجدون شفاء لصدورهم في تلك العقوبات الهزيلة .

ولئن تنكبوا السبيل كذلك فلم يجعلوا لولى الدم العفو أو القصاص أو الدية بما يكفل شفاء الصدر لهم .

فإن عقوبة الاسلام لا تحتاج إلى سبق اصرار ولا ترصد ولا اقتران بجريمة أخرى .

كما أن ولى الدم له الحق بين القصاص أو الدية أو العفو

كذلك فإن اجتهاد عمر بقتل الجماعة بالواحد يجعل في تطبيق النص على هذا النحو شفاء للصدر أيما شفاء . . أمر عجزت عنه كل الأنظمة الوضعية !

أفنلوم عمر بعد ذلك أن اجتهد في فهم النص وتطبيقه ؟!

٣ – تعطيل حد السرقة عام المجاعة :

٢٠ – نسب إلى عمر أنه عطل حد السرقة عام الرمادة بناء على المصلحة وأنه بذلك يقدم المصلحة على النص .

٢١ – والحق أن الأمر ليس تقديما للمصلحة على النص ولا تعطيلا لحد من حدود الله . . ولكنه بولايته العامة وجد أن شروط النص غير منطبقة إذ يوجد شبهة قوية تحول دون تطبيق الحد أو تدرؤه ، وهو الذى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » وسمعه كذلك يقول « لأن يخطئ الامام في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » وهو الذى ترجمه القانونيون المحدثون وبقولهم « إن العدالة تتأذى من إدانة برئ واحد لكنها لاتتأذى من تبرئة مائة متهم » .

وهو الذى جاءه صاحب بستان يشكو سرقة خادمه لثمار البستان فلما حقق القضية وجد ان صاحب البستان لا يعطى خادمه ما يكفيه . . فقال له عمر لو سرق بعد ذلك لقطعت يدك أنتَ . .

هذا الفقه السليم لاقامة الحدود الاسلامية هو الذى فقهه عمر فوجد أن الرمادة شبهة كبيرة تدرأ الحد . . فوجد أن شروط النص لا تنطبق . .

وليس معنى ذلك تقديم المصلحة على النص . . إنما هو اجتهاد داخل النص نفسه للبحث في توافر شروط الجريمة وشروط العقوبة . .

وهكذا لم يفهم البعض عمر . . ولا فقه عمر . . !

٤ – ايقاع طلاق الثلاث بلفظ واحد طلاقاً بائنا :

٢٢ – قالوا إن عمر خالف صريح القرآن في قوله تعالى « الطلاق مرتان » أى دفعتان ، وخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم العملية إذ كان يوقع طلاق الثلاث طلقة واحدة ، فقد روى ابن عباس رضى الله عنه « كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق ثلاث واحدة فقال عمر ابن الخطاب إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم » (١)

٢٣ – ويرد على ذلك بالآتي :

أ – أن هذا الحديث ضَعَّفه كثير

(١) رواه مسلم

من رجال الحديث (١)

ب ـ أنه وردت أحاديث أخرى تفيد العكس أن عمل عمر كان هو عمل الرسول عليه الصلاة والسلام .

ج ـ أنه على فرض التسليم بصحة الحديث فانه يعنى أن الناس كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون طلقة واحدة ، لكنهم في عهد عمر صاروا يوقعون الثلاث دفعة واحدة — يدل على ذلك ما جاء في آخر الحديث « إن الناس استعجلوا أمرا كانت لهم فيه أناة ، أى أن الحديث يحكى الحال الذى كانوا عليه والحال الذى صاروا إليه ، فهو حديث عن تغير عادة الناس وليس عن تغير الحكم في المسألة (٢)

ج ـ الآية الكريمة « الطلاق مرتان » لا تعنى « دفعتان » فقد ورد كذلك قول الله « نؤتها أجرها مرتين » وقوله « يضاعف لها العذاب ضعفين » ولم يقل أحد إنها تعنى أن الأجر والعذاب يكون على

دفعات (٣)

رابعا : نظرة في المصلحة المرسلة :

٢٤ ـ لعل وجه المصلحة بعد هذا العرض الطويل — قد بان بغير غيش ولا تشويه ، بعد أن قضت في كتب الأصول وقتا طويلا غير واضحة المعالم . ولعلها بانت تطبيقا لروح الشريعة ومقاصدها ، وليس خروجا عليها أو انفلاتاً منها ، ولعل الشروط التى تقدمت من عدم مصادمتها للنصوص ، ومن دورانها في فلك المقاصد الخمسة التى تدور حولها أحكام الشرع كلها ، ومن كونها حقيقية وعامة — لعل هذه الشروط ضوابط تحرسها أن تكون مظنة الحكم بالهوى أو التشهى !

ثم لعلها بذلك تحقق المرونة داخل اطار الاسلام فنواجه بروح النصوص كل جديد لم يرد به نص ولم يمكن قياسه على نص ، وتؤكد بذلك صلاحية هذه الشريعة وخلودها على مر الأيام وتجدد الحاجات والرغبات .

وهى تحقق المرونة في المجال الذى يحتاجها وهو مجال المعاملات

أما مجال العقيدة والعبادات وما يجرى

---

١ ـ فى مقدمتهم ابن عبد البر الذى أنكر رواية طاووس ـ وفى تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٢٨ حديث عن ابن عباس رضى الله عنهما فيمن طلق زوجته ثلاثا انه قد عصى ربه وبانت منه امرأته

(٢) الاستاذ محمد الرفزاف ، دروس لقسم الدكتوراه بكلية الحقوق جامعة القاهرة ، للعام الدراسى ١٩٦٠ (٣) القرطبى ج ٣ ص ١٢٨ ـ ١٣٠

مجراها فهو بعيد عن عمل المصلحة قائم على التطبيق المباشر للنصوص .

وهى بعد ذلك ليست مصدرا مستقلا للأحكام لكنها وسيلة أو أداة للاجتهاد أو الاستنباط ترد الأمر أخيرا إلى الله ورسوله . . فما تكشف عنه المصلحة هو حكم الله في الموضوع . . لأنه رد إلى نصوص الكتاب والسنة في معناها دون مبناها وفي غاياتها ومقاصدها دون عباراتها وألفاظها .

وإن أمثلة المصلحة الكثيرة (١) يمكن ردها بيسر إلى نصوص الكتاب والسنة ، بدليل أن الأمثلة التى ضربوها على أنها مصادمة للنصوص وتقديم للمصلحة عليها تبين أنها تطبيق للنصوص ذاتها وليس ثمة خروج عنها !

وبعد

فهل آن للمخلصين من الفاقهين أن يعيدوا كتابة فقهنا الاسلامى وأصوله بعد أن طـــال عليه الأمد حتى أصاب وجهه المضئ الكثير من التشويه أو الغبـــار . . ؟

وهل آن لهم بعد ذلك أن يدخلوا مجال الاجتهاد ليقدموا للامـــة الاسلامية الحلول الشرعية لمشاكلها بدلا من أن تستورد الحلول وتستورد معها الانحلال من الغـــرب ومن الشرق ؟ !

هل آن لهم أن يقفوا وقفة « مضرية » في وجه الراغبين عن شريعة الله ؛ المنفذين أو الراضين بما لم يـــأذن به الله . . ؟!

والله لو فعلوا لتغير وجه الأرض ، ولتغير وجه التاريخ « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهـــم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون »

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . والحمد لله رب العالمين .

---

١ ـ من الامثلة على ذلك :

ما حدث على عهد أبى بكر الصديق من جمعه القران ، وقتاله المرتدين ،واستخلافه عمر بن الخطاب

ـ أما جمعه للقران فرد المصلحة فيه الى النصوص امر يسير

فهو تحقيق لوعد الله « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، وهو قياس على عمل قام به النبى صلى الله عليه وسلم وهو امره بكتابة القران فهو لون من الحفظ والجمع لون اخر ،والمصلحة بعد ذلك تحقق المقصد الاول من المقاصد الخمسة وهو حفظ الدين ـ أما قتال المرتدين .. ففيه نصوص من الكتاب والسنة « قاتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصـــلاة واتـــوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » فقد جعل شرطين اخرين بعد التوبة للكف عن القتـــال وهما اقام الصلاة وايتـــاء الزكاة فان تخلفت احداهما وجب القتال ومن الحديث قول الرسول عليه الصلاة والسلام « من بدل دينه فاقتلوه » ومنـــع الزكاة جحود اتبديل للدين وقول الرسول عليه الصلاة والسلام « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » فقد جاء فى نهايته الا بحقه .. والزكاة من حقه ـ أما الاستخلاف .. فهو محض عمل سياسى شبيه بما يسمي هذه الايام « الترشيح » وهو من قبيل الاعمال التنفيذية الداخلة فيما ســـكت عنه الشرع رحمة بنا غير نسيان .

بسم الله الرحمن الرحيم

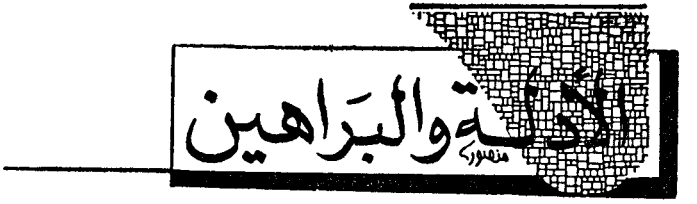

على حُرمة التدخين

لفضيلة الشيخ إبراهيم محمد سوسيق ـ المدرس بكلية الحديث والدراسات الإسلامية

لقد أجمع من يعتد برأيهم من علماء الإسلام : أن التدخين وباء لا يقبل عليه العقلاء ، واستندوا في تحريمه إلى عدد من النصوص الصريحة ، التى تشير بأوضح بيان إلى حرمة التدخين وخطره على الإنسان ، لما يسببه من الأضرار في النفس وفي المال ، وهما من الجواهر الخمس التى تجب حمايتها على كل مسلم .

أليس التدخين من الخبائث التى يجب أن تتنزّه عنها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى خير أمة أخرجت للناس ؟

إننا سنورد هنا من أقــوال المختصين ما يوضح طبيعة التدخين الخبيثة ، بحيث تنقطع كل شبهة في تحريمه على كل نفس مسلمة تخشى الله وترهب عقابه .

ولنمض الان في توضيح الأصول الأولى ـ التى تنبنى عليها الحرمة بالأدلة الشرعية ، ليعلم كل مدخن أنه إنمــا يعصى الله تعالى بكل لفافة تبغ ينفث دخانها بالهواء ، في نشوة وخيلاء .

أولا : إضاعة الصحة :

لا يمارى أحد من العقلاء في أن الصحة نعمة من نعم الله تعالى على عباده وان من الواجب شرعا : المحافظة عليها من أى أذى . ولهذا شرع الله التداوى من الامراض والأوبئة . قال صلى الله عليه وسلم : (تداووا عباد الله ، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً ، غير داء واحد : الهرم) (١) .

ومن عجب : أن يرى الانسان كيف تضيع صحته وعافيته — بينما هو مستمر في العكوف على هذا السمّ الزعاف : يحرق أصابعه ، ويسيل مدامعه ويبدد رحيق الحياة في جسمه ، ويفسد عناصر الحيوية والوقاية في دمه ، وقد جاء في الخبر :

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر) (٢) . ويقول الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله : (فلما علم بالضرورة والتجربة والمشاهدة ما يترتب على شاربه غالبا من الضرر في صحته وعقله ، وقد شوهد موت وإغماء وغش ، وأمراض عسرة كالسعال المؤدى إلى مرض السلّ الرئوى ومرض القلب ، والموت بالسكتة القلبية ، وتقلص الاوعية الدموية بالأطراف ، وغير ذلك مما يحصل به القطع العقلى : أن تعاطيه حرام .

فإن العقل الصريح — كما يقضى ولابد بتعاطى أسباب الصحة والحصول على المنافع — كذلك يقضى حتما بالامتناع عن أسباب المضار والمهالك والمبالغة في مباعدتها ، لا يرتاب في ذلك ذو لب ألبتة) (٣) اهـ .

ولبيان أهمية هذا العامل في التحريم القاطع — سوف نعود إليه بشهادات من الأطباء المتخصصين ، ليعلم عشاق الموت البطئ : أننا لا نخيفهم بأكثر مما يخيفون به أنفسهم بالفعل — لا بالكلام !

ثانيا : اتلاف المال :

وإتلاف المال بسبب التدخين عملية خطيرة ذات شقين : أولهما : خطر التدخين على المال الشخصى أو الفردى وثانيهما : خطر التدخين على الاقتصاد القومى .

وبالنسبة للخطر الأول يعتبر التدخين ثغرة مفتوحة تتسرب فيها أموال طائلة ينفقها المرء يوميا بغير حساب ، وينفقها في المقام الأول لإضعاف بدنه وإفساد صحته ، فيدخل في عداد السفهاء الذين يجب فرض الحجر عليهم ومنعهم من

١ — رواه احمد فى مسنده ، وابوداود ، والترمذى وقال : حسن صحيح .
٢ — رواه الامام احمد وابو داود ،وقال الحافظ العراقى : اسناده صحيح،وصححه السيوطى فى الجامع الصغير .
٣ — راجع فتوى الشيخ رحمه الله بتحريم شرب الدخان .

حرية التصرف الفاسد بأموالهم ، ثم إنه يحظى بصحبة شريرة وصداقة سخيفة مع نـــوع من أرذل مخلوقات الله وهم الشياطين : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا (١) وهذه الأخوة الشيطانية خليقة أن تجعل كل مدخن يستحى من ربه ، ولا يستمرئ هذه الهـــواية التى هى عين الغواية ، وأن يتوقف منذ اللحظة عن تعاطى هذه اللفائف التى هى أبواب الفساد والإتلاف . إذ لا شك أن المدخن يبتاع بماله ما يدخل الفتور والإضعاف على بدنه ، فيجمع بين ضررين في وقت واحد ! وإذا كان الإسراف في حد ذاته محرما ، فكيف بمن يجعل الاسراف مدعـــاة للإتلاف والإضعاف ؟

علم الله انه للجنون بعينه : أن ينساق المدخنون إلى حتفهم بظلفهم ، وأن يسعوا بأنفسهم لشراء المنية بأموالهم ! ورد في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات . وكره لكم قيل وقـــال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال) . فلو لم يكن التدخين محرما لما فيه من كثرة الإسراف ، فإنه لمحرم أشد التحريم لما فيه من الانتحار البطئ الذى يستنزف طاقة المدخن وعافيته حتى لا يكف عن السعال والهزال .

خطر التدخين على الاقتصاد القومى

ورد في (أمور بدهية عن التدخين : **Common Sense About Smoking 1963**) أن الباحثين توصلوا إلى ان الشخص الذى يبتدئ حياته التدخينية في حوالى السابعة عشرة من عمره — ينفق في بريطانيا وحدها ما يقرب من (أربعة آلاف جنيه استرلينى) على التدخين . أى ما يعادل (ثلاثين ألف ريال تقريبا) على السيجارة وحدها . ومن المؤكد أن هذه المبالغ قد تضاعفت بسبب ارتفاع الاسعار .

ويؤخذ من تقرير لجنة المستشارين لوزارة الصحة الامريكية : أن المدخنين كانوا سببا في إشعال نيران الحرائق بنسبة أكبر من غيرهم ، لأن كثيرا من المدخنين تطيش عقولهم فيذهلون عن عقب السيجارة . . وقد يدهمهم النوم وهو ما زال بين أصابعهم فيتسببون في إشعال النار في فراشهم ، وبيوتهم ويكونون هم أول الضحايا . . !

وكم من فنادق صارت انقاضا ، ومنشآت أصبحت رمادا ، ومؤسسات انصهرت واحترقت فيها مئات الأجساد بسبب غفلة من مدخن ، أوقعه سوء عمله في إهلاك نفسه وإهلاك من معه ! !

وقد أعلنت إحدى شركات التأمين :

(١) سورة الاسراء : (٢٧)

أن ثلاثين بالمائة من الحرائق التى توصل التحقيق فيها إلى معرفة الفاعل الأصلى – ثبت ان مرتكبيها هم مدمنو التدخين . . فبالله اسمع وتعجب ! ! ألم تر إلى كثير من المدخنين وقد اخترقت شرارة النار أثوابهم ، وأحرقت السيجارة جلودهم أو سوّدت أصابعهم ؟ ما أغناهم لو أنصفوا – عن كل هذا الجحيم ! !

ثالثا : الرائحة المنتنة :

أخبروني أيها السادة ، من منكم يستطيع أن يقترب من فم أحد المدخنين لمدة تزيد على دقيقة ؟ من منكم يطيق أن يدنو من مدخن برائحة فمه المنتنة ، التى سببتها ألوان التبغ الكثيرة فأصبح أسود الاسنان كريه العثنون ، قبيح النفس – بفتح الفاء – صعود وهبوطا ، كثير الشهيق والزفير كأنما حطّ من عبء كبير ؟ كم من صفّ في الصلاة اضطرب حبله بسبب رائحة خبيثة انطلقت من فم مدخن فأصابت الجميع بالتقزز والاشمئزاز ، وكانت سببا في إلحاق الأذى والضرّ بعباد الله دون ذنب جنوه إلا مجاورة هذه المدخنة المحترقة ! !

روى الطبراني في الاوسط عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من آذى مسلما فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله) إسناده حسن وقد ورد في الصحيحين عن جابر رضى الله عنه (ان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الناس) . ومعلوم ان الاسلام يرعى حرمة المجتمعات الاسلامية ويوصى بحسن التأدب لها وضرورة الالتزام الخلقى وعدم الحاق الضرر بأهلها لا سيما تجمعات العبادة واماكن الصلاة ما دام الدافع الى ارتيادها طاعة الله والرغبة في الخير والثواب وابراز وحدة المسلمين . وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن جابر مرفوعا (من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا ، وليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته) .

ولا شك أن رائحة الثوم والبصل أخف وطأة من رائحة التدخين المنتنة – لأن رائحة الثوم والبصل مؤقتة وليست دائمة ، فهى تزول بتطهير الفم منها ، ثم هى رائحة طعامين مباحين من أطعمة الله ، وفي السنن : أنه صلى الله عليه وسلم أمر آكل البصل والثوم أن يميتهما طبخا . وقد أهدى إليه صلوات الله عليه طعام فيه ثوم ، فأرسل به الى أبي أيوب الانصارى ، فقال : يا رسول الله ، تكرهه وترسل به إلىّ ؟ فقال (إني

أناجى من لا تناجى) (١) وقد ذكر ابن القيم من فوائد البصل أنه يقوى المعدة ، ويهيج الباءة ، ويزيد في المنى ويقطع البلغم ، ويجلو المعدة — كما ذكر من فوائد الثوم : أنه هاضم للطعام ، قاطع للعطش ، مطلق للبطن ، مدر للبول ، يقوم في لسع الهوام وجميع الاورام مقام الترياق (٢) . أما التدخين ، فما فوائده « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . !

فالأفضل لكل مدخن أن يراقب الله في نفسه وفي معاشريه ، وليعلم علم اليقين أنه يسبب غاية النفور لمن حوله من المرافقين والجلاس بما يحمل من قبح الرائحة ونتن الأنفاس ، حتى وان اخفوا عنه حقيقة شعورهم نحوه ، خوفا منه أو تأدبا معه . ولكن : هل يقلب التأدب الحق باطلا ؟ أو الكراهية حبا ؟ والسؤال بعبارة أخرى أكثر صراحة هو . . **هل يعلم المدخن المفرط في التدخين حقيقة شعور زوجته نحوه ؟ هل استطاع أن يدرك أهى قادرة على تحمل رائحة فمه أو هى تغالب نفسها في ذلك ، وهل استطاع أن ينظف فمه قبل نومه أو تركه ينفث الخبائث والنتن في أرجاء المكان من حوله ؟**

تدبر ذلك يا أخى ثم تأمل كيف كان الصادق المصدوق صلوات الله عليه يدعو ربه فيقول (اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى) ويقول (اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، والأعمال والأهواء ، والأدواء) . اخرجه الترمذى وصححه الحاكم واللفظ له . فصلوات الله وسلامه على من كان المثل الكامل للانسانية الفاضلة .

رابعا : تخدير الجسم بمادة « النيكوتين »

قبل كل شئ دعوني هنا أعلن معارضتى المطلقة لمن يدعون ان التدخين غير مضر ، وغير مخدر . **لأن وقائع الأحوال كلها تؤكد ان الادمان يبلغ بالمدخن حدا يفقد معه السيطرة على أعصابه تماما ، ويبلغ هذا الحد أقصاه عندما يفقد المدخن علبة السجائر مثلا ، فتراه هائجا كالمجنون يذرع الطرقات هائما على وجهه بحثا عن هذه المادة المخدرة . . التى تريح أعصابه بعد أن سرى السم إليها وأصبح عادة لها.**

وفي الحقيقة فإن الحقائق العلمية المعروفة عن هذه المادة مخيفة تماما ، ونحن بدورنا نقدمها هدية إلى المدخنين ، ليعرفوا في أى طريق من طرق الشر يسيرون .

لم تكتشف هذه المادة إلا عام ١٨٢٨م

١ ـ الطب النبوى لابن القيم ص٢٢٧ ط بيروت .

٢ ـ المرجع نفسه ص ٢٢٣ ،ص ٢٢٧

اكتشفها عالمان ألمانيان هما : بوسلت **Bosslet** و رايمان **Reimau** وأطلقا على هذه المادة اسم نيكوتين **Nicotin** نسبة إلى رجل يدعى « جان نيكوت **Jean Nicot** » — (وكان سفيرا لفرنسا في البرتغال ، وقد زرع هذه المادة في حديقة منزله مستهدفا تزيينها بأوراق التبغ الجميلة وأزهاره الجذابة) . وفجأة طارت الشائعات ببعض الفوائد الطبية لهذا النبات وسرعان ما فشا وانتشر في أوربة كلها . وكانت تلك هى البداية الخطيرة . . بعدها أصبح التبغ مبسما في كل فم ، وذخيرة حية في كل جيب .

النيكوتين هو المادة الفعالة المؤثرة في التبغ . وهو مادة سامة قاتلة ، ويكفى منها خمسون ملليجراما للقضاء على أى انسان في عدة ثوان . فإذا عرفت أن نسبة ما يوجد منها في السيجارة العادية حوالى خمسة ملليجرامات أدركت الموت البطئ الذى يتعرض له مدمن السيجارة والعياذ بالله .

وقد أورد بعض الباحثين دليلا على شدة امتصاص الجلد المخاطى لسمّ النيكوتين : « أنه لو وضع عدد من نقط النكوتين على لسان إنسان ، لكان ذلك كافيا لقتله في عدة ثوان . فكيف بمن يصل النيكوتين إلى أمعائه ، ويتوزع على سائر اجزاء جسمه الداخلية وأعضائه ؟ » . .

ومع أن كل جرام من التبغ — يحتوى على عشرين ملليجراما من النيكوتين فإن كمية النيكوتين ترتفع في ثلث السيجارة الأخير الى ٤٠٪ وهى المنطقة المسماة (منطقة التكاثف : **Kondensation**) أما في « عقب السيجارة » فتقفز هذه النسبة إلى ٦٠ ٪

ويتزايد الأمر خطورة عند عملية التدخين نفسها ، فإن جرام التبغ المتوهج يا عزيزى المدخن ، يبعث إلى فمك ما يصل إلى ٧ ملليجرامات من تلك المادة السامة « النيكوتين » . هذا بخلاف السموم الأخرى ، التى تؤدى إلى الشعور بحرارة في المعدة ، وجفاف في الحلق واحساس بصعوبة النفس ، وفقدان الوعى الناتج عن تسارع النبض وهياج الأعصاب وزيغ البصر والسمع ، **ولا شك ان هذه المادة بما تحويه من عناصر مخدرة ومفترة — هى ما يحملنا على الجزم بأن التدخين مخدر ، بل هو من أشد المخدرات فتكا بالإنسان ، ولا يتطلب**

في ذلك سوى يد تمتد إلى صندوق لتخرج منه أنبوبة السم الفتاك ، وتظل تتراقص بين شفتيه وهو هائم بها مفتون ، حتى يؤول به الأمر إلى أن يسقط في النهاية مصروعا، وقد سرى في سائر جسده سم الأفعى .

يقول الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله (ولذلك يتركه كثير من الناس خوفا من ضرره وكراهية لرائحته ، وقد يعلقون طلاق نسائهم على العودة إليه ، يريدون بذلك تركه نهائيا ، فإذا حمل إليهم وقت الحاجة لم يستطيعوا الإعراض عنه ابدا ، بل يقبلون عليه بكلياتهم كل الإقبال ولو طلقت نساؤهم — فله سلطان عظيم على عاشقيه وتأثير على العقل ، وذلك أن شاربه يفزع إلى شربه إذا نزل به مكدر فيتسلى ، ويذهل العقل بعض الذهول) ١ هـ .

ويقول الشيخ رحمه الله في **شرح طريقة عمل النيكوتين في إفساد الجسم :**

(وقد أثبت الأطباء له مضار عظيمة وقالوا إنها تكمن في الجسم أولا ثم تظهر فيه تدريجيا ، وذكروا أن الدخان الذى يتصاعد عن اوراق التبغ المحترقة يحتوى على كمية وافرة من المادة السامة — هى النيكوتين — فإذا دخل الفم والرئتين أثر فيهما تأثيرا موضعيا وعموميا ، لأنه عند دخوله الفم تؤثر المادة الحريفة السامة التى هى فيه — في الغشاء المخاطى ، فيهيجه تهييجا قويا ، وتسيل منه كمية زائدة من اللعاب ، وتغير تركيبه الكيماوى بعض التغيير بحيث يقل فعله في هضم الطعام ، وكذلك تفعل في مفرز المعدة كما فعلت في مفرز الفم — فيحصل حينئذ عسر الهضم . وعند وصول الدخان إلى الرئتين عن طريق الحنجرة تؤثر فيهما المادة الحريفة فتزيد مفرزهما ، وتحدث فيهما التهابا قويا مزمنا . . فيتهيج السعال حينئذ لإخراج ذلك المفرز الغزير الذى هو البلغم — ويتسبب عن ذلك : تعطل الشرايين الصدرية ، وعروض أمراض صدرية يتعذر البرء منها ، وما يجتمع على باطن القصبة من آثار التدخين الكريهة الرائحة يجتمع مثله على القلب : فيضغط على فتحاته ويصد عنه الهواء فيحصل حينئذ عسر التنفس ، وتضعف المعدة ، ويقل هضم الطعام ، ويحصل عند المباشر له الذى لم يعتده دوار وغثيان وقيء وصداع ، وارتخاء للعضلات ووهى للأعصاب ثم سبات . . وهى كناية عن حالة التخدير الذى هو من لوازم التبغ المتفق عليه — وذلك لما يحويه من المادة السامة) ١ هـ .

إن الخطورة الكبرى لحالة التخدير التى يسببها التبغ – ليست في كونه مغيبا لعقل شاربه فقط ، بل في كونه مهيئا له إلى إتيان المنكر بشتى أنواعه . نعم ، فإن من الحقائق المعروفة في « علم النفس الجنائي : أن الجاني يتغلب على تردده في ارتكاب الجريمة بتعاطى بعض المخدرات ، وحين يفقد وعيه ويضيع توازنه – يصبح قادرا بغير شعور على ارتكاب المحظور ! وكم من وقائع وصل فيها المجرم الى مرحلة الهياج – وكان التحكم في المخدر وسيلة ناجحة لإذلاله وتحطيم معنوياته .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى ذلك – والله أعلم بمـراده – في قوله سبحانه (فتعاطى فعقر) وهو أحـد الرأيين في تفسير جزء الآية . يقول الشوكاني رحمه الله : أى تناول الناقـة بالعقر فعقرها – أو اجترأ على تعاطى أسباب العقـر فعقر . ١هـ وهذا الرأى الثاني أقرب والله أعلم إلى نظم الآية ، لأن من المعلوم لدى البلاغيين : أنه قد يُقصد تعلق الفعل بمفعول غير مذكور ، ولابد من تقديره ، إن عاما فعام وإن خاصا فخاص . ومثاله قوله تعالى (والله يدعـو إلى دار السلام) اى يدعو كل مكلف . وقوله سبحانه (إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى أحدا – ولما كانت أسباب العقـر ومقدماته والعـوامل المساعدة عليه كثيرة ، ناسب أن يحذف المفعول لقصد التعميم مع الاختصار ، ويستأنس لهذا الاتجاه في معنى الآية بأن التعاطى هو تناول الشئ بتكلف ، والتكلف للشئ هو الاستعداد لـه والأخذ بأسبابه مع مجاهدة ومكابدة . وهذا أيضا تصوير لواقـع وطبيعة المدمن الذى يكلف نفسه ضد طبيعتها الأصلية ، ويروّضها بوسائل الإفتار والإسكار لتقوم بما ليس من شيمتها أن تقوم به ، ومن ثم يأبي المجرم في عاقبة أمره أن يعترف بما صدر عنه في حالة فقدان الوعى . ولله في خلقه شئون .

خامسا : تعريض الجسم للتهلكة بسرطان الرئة :

لم يعد هناك أدني شك في أن التدخين سبب قوى من أسباب الإصابة بسرطان الرئة . هذه نتيجة علمية أسفرت عنها بحوث الهيئات الطبية المتخصصة في جميع أنحـاء العالم . وكانت إشارة الخطر الأولى المنذرة بوجود علاقة

أكيدة بين السرطـــان وبين الفحم ومشتقاته – هى شيوع « سرطان الصفن» بين كثير من منظفى المناجم ، الأمر الذى لفت انتباه السير « بير سفال بوث » عام ١٧٧٥ م . وأعقبت ذلك ظاهرة مشابهة لدى عمال المناجم في ساكسونية : حيث فشت الإصابات فيهم نتيجة التأثير نفسه مما جعل الأطباء يهتمون بدراسة المرض ومعرفة أسبابه المباشرة .

وهناك أيضا حقيقة مؤسفة بهذا الصدد : وهى أن السرطان الرئـــوى داء خبيث ، لا يتم اكتشافه في العـــادة إلا بعد أن تتضح آثـــاره خارج الرئة نفسها ، مما يجعل أربعة من كل خمسة أشخاص يصابون به لا يمكـــن تداركهم في الوقت المناسب فيواجهون القضاء المحتوم

ولهذا السبب أعلن مجلس الأبحاث الطبية في بريطانيا عام ١٩٥٧ م « ان التفسير الوحيد المقبـــول لازدياد الوفيات بحوادث سرطان الرئة لـــدى الرجال في الخمس والعشرين سنة الأخيرة – هو أن هذا الازدياد ناتج في غالبيته عن التدخين ، لا سيما التدخين الشديد ؛ (أكثر من عشرين سيجارة يوميا) .

وفي الدراسة المشار إليها آنفا :

Common Sense About Smoking

إحصائية تقول : إن عدد الموتي في سنة واحدة – مصابين بسرطان الرئة – هم ثلاثة وعشرون ألفا عام ١٩٦٢ م . وأنه قد مـــات في بريطانيا حتى عام ١٩٦٣ م أكثر من (ربع مليون شخص) بسبب التدخين . وكل شئ بقضاء الله وقـــدره .

وجدير بالذكر هنا : أن جمعيات السرطان التى تكافح هذا الوباء في كل مكان – تؤكد للعالم كله ، أنها لا تنطلق في نشاطها المعـــادى للتدخين من دافع دينى أو اجتماعى أو أخلاقي ، وأنها إنمـــا تنبعث من دافع واحد فقط :

وهو خطر التدخين على الناحية الصحية

ذلك الخطر الذى يشتد ويتزايد مع بلع الدخـــان ، أو الإصرار على إخراجه من الأنف ، أو التدخين قبل تناول الطعـــام مطلقا ، أو التدخين في الغرف المغلقة بصفة عامة وغرف النـــوم بصفة خاصة .

وحيث قد تأكدت علاقة التدخين بالسرطان الرئوى ، فلم يعد ثمة مجال للقـــول بغير التحريم المطلق للتدخين بحكم كونه مفضيا الى التهلكة المنهى عن الوقـــوع فيها بالنص القـــرآني (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . وبقوله سبحانه (ولا تقتلوا أنفسكم

إن الله كان بكم رحيما) . وقد أجمع على ذلك الأطبـاء المهرة من العـدول وغيرهم ، الذين ثبت لهم من البحوث التجريبية والمعملية بما لا يدع مجالا للشك أن التدخين خطر على الحياة نفسها ، مما يدخله مدخـل الانتحار المحرم .

لماذا يشيع التدخين بين الشباب ؟

لا أظن أن الآباء وكبار الأولياء قد جنوا على النشء البرىء جناية أفدح ضررا ولا أعظم خطراً ولا أسوأ أثرا — من تلقينهم الدروس الأولى في التدخين ، وذلك منذ أرسلوهم ليبتاعوا لهم علب السجائر أول مرة ، ثم استمرءوا بعد ذلك إشعالها وتدخينها على مـرأى ومسمع من أبنائهم الصغار ، الذين تحتل غريزة المحاكاة مكانا أساسيا في طباعهم :

وينشأ ناشئ الفتيان منـا
على ما كان عوده أبوه

وقد نشرت مجلة النيوزويك الامريكية تحقيقا بتاريخ ١٩٦٨/٤/٨ م اثبتت فيه أن أهم سبب يدعو الشبان إلى التدخين هو « تقليدهم لأفراد الأسرة » وخصوصا الأب ، والأخ الأكبر . وأن نسبة هؤلاء الشبان هى ضعف نسبة الأولاد الآخرين . . من آباء غير مدخنين .

وجاء ايضا في تقـرير موجز للكلية الملكية للأطباء في بريطانيا عن التدخين والصحة **Smoking and Health** انه قد ثبت علميا ، من الدراسات التى أجريت ، أن نسبة الوفيـات بين من بدءوا التدخين قبل سن العشرين أكبر ممـا هى عليه بين الذين بدءوا التدخين بعد سن العشرين .

« أثر التدخين في التخلف الدراسى »

هناك احصائية علمية قام بها عـدد من الباحثين — أبرزت نتيجتين هامتين :

أولاهما : وجود عـلاقة قوية بين التدخين ، وبين حدوث التخلف الدراسى لدى الطلاب المدخنـين « والمقصود بالتخلف الدراسى : انخفاض نسبة التحصيل دون المتوسط العام بانحرافين معياريين سالبين ، حيث نسبة التحصيل

$$= \frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠ \quad (١)$$

وثانيتهما : امتياز غير المدخنين في الألعاب الرياضية والمجالات المهنية على المدخنين ، نتيجة لانخفاض طاقة القوة في عضلات المدخنين بنسبة تتراوح ما بين ١٥ ٪ و ٣٢٪ عن زملائهم ،

١ ـ د . حامد زهران : الصحة النفسية والعلاج النفسى . ط اولى :ص ٤٧٨

مما يؤثر في قوة تحملهم وصلابة عضلاتهم أما في المواد العلمية فقد وجد الباحثون أن درجات غير المدخنين تعلو بنسبة تصل إلى ٢١ ٪ عن درجات زملائهم المساكين من ضحايا التدخين . ولم يكن ذلك راجعا إلى مزيد من الاجتهاد لدى الممتنعين عن التدخين ، ولكنه راجع في الحقيقة إلى الهمود العقلى والتفكك الذهنى لدى أولئك الضحايا ، حيث يعيشون جل أوقاتهم في تشتت فكرى ، وضياع للأفكار ، وعدم القدرة على التركيز ، وضعف في الذاكرة ، واضطراب في الفهم .

وفي كتيّب نشرته « الجمعية الامريكية للسرطان » — عرضت قصة طفل كانت أمه تدخن ، ومنها تعلم تدخين السيجارة الأولى ، فلما قام بزيارة لأحد معارض الجمعية وشاهد الأخطار المفزعة التى يتعرض لها المدخنون — تأكد أنه لو استمر المقطوع الحالى للسجائر في البلاد على ما هو عليه — فإن « مليون شخص من اليافعين » الذين ما زالوا حتى اليوم على مقاعد الدرس ، سوف يموتون من سرطان الرئة !

كيف توقف التدخين ؟

١ — ليس ثمة ما يضمن نجاحك في إيقاف التدخين بعد اعتمادك على الله تعالى ، واستمدادك العون منه وحده — سوى عزيمتك القوية ، وارادتك الصارمة ، مثل الغريق الذى يجد من حوله أمواجا كالجبال ، فيضرب البحر بذراعه المفتولة وصدره العريض حتى يجد نفسه على شاطئ النجاة : فقد خسر القليل من الجهد ، وكسب أعظم الأشياء وأثمنها : وهو النجاة من الموت غرقا . وبدون هذه الارادة الشخصية وحدها ، لن تفيدك عشرات النصائح ، ولا مئات الاحصائيات عن عدد الضحايا .

إنك لم تعد مجرد إنسان مدخن ، بل صرت عبداً خاضعا لشر العادات ، عادة التدخين التى تفتك بكل شئ ، وأهم شئ : وهو قوة العزيمة . ونقطة البدء في صراعك مع التدخين ، هى أن تستنقذ هذه الارادة المسلوبة من براثن الداء ، وبعدها يسهل عليك كل شئ بإرادة الله .

٢ — لا تنس أبدا ان التدخين مجرد عادة يمكنك أن تستبدل بها غيرها ، بتغيير المكان ، أو الغياب عن العصبة المدّخنة ، أو تغيير المناخ والقيام ببعض الجولات والرحلات ، والتسلى بهوايات جديدة مفيدة يغلب عليها

الطابع الحركى الذى لا يترك للسيجارة مكانا بين إصبعيك ، ولا فرجة بين شفتيك . وعندئذ تصبح السيجارة مجرد ذكـــرى كئيبة تطردها الأيام والأعمال عن مخيلتك .

٣ – سوف تجد من شياطين الإنس من يقول لك: إن الاقلاع عن التدخين مسألة أعقد من ذنب الضب ، بل هو من ضروب المستحيلات ! فإن لقيت مثل هذا فاعلم أنه الصديق الجهول ، الذى خير منه العـــدو العاقل . وضع نصب عينيك أن الكف عن التدخين إنما هو طاعة لله تعالى قبل أن يكون شيئا آخر .

وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله بن الامام محمد بن عبد الوهـــاب رحمهم الله (فلا ينبغى لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلتفت إلى قول أحـــد من الناس إذا تبين له كلام الله وكلام رسوله في مسألة من المسائل ، وذلك لأن الشهادة (بأنه رسول الله) تقتضى طاعته فيما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، وتصديقه فيما أخبر) ١هـ . **وقد أفتى الشيخ خالد بن احمد من فقهاء المالكية بأنه لا تجوز إمامة من يشرب التنباك ، ولا يجوز الاتجار به ، ولا بما يسكر ١هـ.**

١ هـ وبذلك يستقر في الذهن أن التدخين محرم ، والاصرار عليه كبيرة ، حيث من المقرر لدى أهل العلم أن الصغيرة تعطى حكم الكبيرة بالاصرار عليها ، أو التفاخر بها ، أو بوقوعها من ذوى الولايات الدينية ومن يقتدى بهم ويحتج بفعلهم أو قولهم أو سكوتهم من العلماء والقضاة والأئمة وأهل الفتوى .

٤ – إذا لم تقلع عن التدخين من الآن – فلسوف يجبرك الأطباء غدا على إيقافه ، وعلى ايقاف تناول مجموعة أخرى معه من أحب الأطعمة والأشربةالى نفسك ، بعد أن يكون الخطر قد زاد ، والضرر قد استشرى : ! فهل فكرت حين يتقدم بك العمر وقد تسارعت ضربات قلبك، وانسدت أوعية دمك ، وارتفع معدل ضغطك ، واصابك الهـــزال والضعف والصداع والرعشة ؟ هل فكرت وانت تهرب من رائحة الأخشاب والأعشاب المحترقة – أنك تسمح لدخـــان هذه الأعشاب والأوشاب ان يسرى في دمك ، ويتسلل إلى رئتيك . . ؟

٥ – قبل أن تمدّ يدك إلى السيجارة في

الصباح وقبل الافطار ، تناول كأساً من الليمون المرّ ، فهذا أكبر مساعد لك على إيقاف التدخين طوال فترة الصباح . ثم اجعل معك من التين أو التمر ما يغنيك عن تناول علبة اللفائف الكريهة ، فكم لها من مزايا في طرد السموم . ويضيف ابن القيم الى التين أنه أغذى من جميع الفواكه ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطحال ، وينقى الخلط البلغمى من المعدة ، ويغذو البدن غذاء جيدا . اهـ

كما يقول عن التمر : وهو من اكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب ، وأكله على الريق يقتل الدود ، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية ، فإذا أديم استعماله على الريق جفف مادة الدود وأضعفه وقلله أو قتله ، وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى — اهـ . وقد ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال (من تصبح بسبع تمرات لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) . وقال (بيت لا تمر فيه جياع أهله) .

كما وأنصحك أيضا بالكف عن تناول اللحوم مؤقتا حتى تنجح محاولتك في قهر عدوك ، فإن التدخين اكثر ما يكون استجابة لطعام غذى باللحوم .

٦ — وإني لأناشد الهيئات الصحية المختصة أن تفكر في فتح عيادات لعلاج التدخين . . مثل العيادات التى فتحها في السويد « دكتور بورجى أيروب **Dr. Borje Eyrup** » وعالج بواستطها (ستة آلاف مدمن » عن طريق الحقن المهدئة للأعصاب ، وحقن النيكوتين اليومية ، التى أعطت نتيجة حاسمة بعد عشرة أيام فقط من بدء العلاج ، وأعطت دفعة قوية من الأمل في القضاء على هذا الوباء الملعون !

نداء إلى شباب الإسلام . . !

أيها الشباب المسلم . . إني أخاطبكم بما للإسلام عليكم من حقوق ، وبما عليكم نحوه من واجبات ، وأولها أن تحفظوا عقولكم من الخلل ، وأجسادكم من المرض ، ونفوسكم من الأهواء والشهوات . افتحوا أعينكم جيدا على الخطر الداهم الذى يشتعل نارا بين أصابعكم . انكم لم تولدوا والسيجارة في أفواهكم ، بل اكتسبتم التدخين باعتباره عادة من أسوأ العادات في مجتمعكم : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم

السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون).

* ألا وإن اقبح عادة فيكم هى أن تكونوا عبيدا لعاداتكم . .

فاستخدموا هذه الجوارح الطاهرة فيما خلقت لأجله ، ولا تجعلوا أفواهكم النظيفة مداخن للشيطان ينفث منها سمومه لتفسد الهواء النقى ، وتستذل الانف الحميّ ، وتصيب البلاد والعباد بالأوبئة الفتاكة ، وتفسد بهاء الأسنان بالصدأ المثير للغثيان .

* ألم تروا ما سببه التدخين لآبائكم وإخوانكم وذويكم من أمراض وعلل قليلها ظاهر ، وكثيرها مستور ؟ أليس من المخزى بالنسبة لكم أن تسلكوا نفس الطريق المفضى إلى الدمار وانتم تشاهدون الضحايا على الجانبين ؟ .

واخيبة أمل الإسلام فيكم ، إذا دعاكم للجهاد فلم يجد فيكم غير رئات مسلولة ، وأيادٍ مغلولة ، وأجساد عليلة ، وشيوخ يرتدون ثياب الشباب !

نريد ان تبقى اخطار التدخين حية في وجدانكم على الدوام . نريدكم أن تضعوا رقابة العلى الأعلى نصب أعينكم فهو الله الذى لا تأخذهُ سنة ولا نوم ، ونريدكم ان تكونوا رقباء على أنفسكم قبل أن يكون أولياء أموركم رقباء عليكم ، فتعسا للبشر اذا لم يرعوا حق رب البشر . . « وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .

رسائل لم يحملها البريد

لفضيلة الشيخ عبدالرؤوف اللبدي ـ الأستاذ المساعد ـ بكلية الشريعة

والدى العزيز :

لشد ما يحزن القلب ويحزب النفس أن أكتب إليك اليوم أني قد تزوجت ، وأني قد تزوجت فتاة مسيحية ليس بينها وبين الأسلام نسب ولا سبب ، وأنها أجنبية الـــدم ليس لها في ديار العرب جدود ولا أرحـــام . .

لقد تزوجت منذ ثلاث سنوات خلت ، ولكنى كتمتك الخبر خشية أن ينقطع عنى عونك المتواصل ، ويتخلى عن جيبى مالك المتدفق ، أما اليوم فقد أصبحت طبيبا أتدرب في أحـــد المستشفيات ، وآخذ راتبا يكفينى ويزيد ، وتخرجت زوجتى في كلية الآداب وأصبحت مدرسة في إحدى المدارس الثانوية ، وفي مرتبها ما يزيد مالنا قوة على قوة ، ووفرا على وفر .

والدى العزيز :

سوف تقرأ هذه الرسالة مرة بعد مرة ، وفي كل مرة ترجع البصر كرتين تتعرف توقيعى الماثل في ذيل هذه الرسالة ، وتتبين اسمك الكامل الذى أخطه على وجه الغلاف ، وسوف ترجو في كل مرة أن تكون هذه الرسالة قد كتبها كاتب غيرى ، أو أن تكون قد وقعت بين يديك عن خطأ وغفلة من موزع البريد .

رفقا بنفسك يا والدى العزيز ، وأمسك عليك بقايا بصر كاد يودى به مرض السكر ، فما بك من حاجة إلى أن تقرأ هذه الرسالة أكثر من مرة ، كل ما فيها صدق لا يشوبه كذب ، وحق لا يعتريه باطـــل ، وهذا التوقيع الذى تحدّق فيه وتحملق هو توقيع ابنك لا شك ولا زيف .

سوف تتهمنى يا والدى العزيز أني قد عققتك ودلّست عليك ، وأني لم أك ذلك الولد البار الذى كنت تتوقع وتؤمل ، سوف تتهمنى بالخداع والمراوغة ، أظهرت لك خلاف ما أبطن ، وقلت لك قولا لم أكن به أومن ، حتى إذا ما انتهت حاجتى إليك وأصبحت ذا غناء عنك ، سقط النقاب عما كنت أخفيه ، وأفصح اللسان عما كنت أطويه .

الحق يا والدى العزيز أني لم أك عاقا لك ولا مدلّسا عليك ولا مخادعا مراوغا ، لقد كان على أن أسلك أحد سبيلين : سبيل الفاحشة التى حرم الله ، وليس لها من عقبى سوى الخسران والضياع ، أو سبيل هذا الزواج الذى تكره ، ولقد اخترت ما فيه عصمة لدينى ورعاية لخلقى وزلفاى إلى الله ، وهذا الخيار على ما فيه من مشكلات قد تحدث في المستقبل البعيد هو — فيما أعلم — خير عند الله وخير عند الناس وأحسن عاجلة وأفضل عقبى .

أما خيارك الثالث في الانتظار الطويل حتى أتخرج فلم استطع عليه صبرا ،

وكيف يستطيع شاب مثلي غرثان مرمل ناهز الثلاثين من العمر ، تعرض عليه اللحوم البشرية عارية تفيض غضارة ونضارة ، وتناديه من عن يمينه ويساره على مقاعد الدراسة ، وتلقاه وجها لوجه في الحدائق العامة والشوارع المزدحمة ، وتنتظره من خلفه حيث يسكن ويأكل وينام ، كيف يستطيع شاب مثلي هذه حاله أن يظل سبع سنوات : صائما بلا طعام ، حيّاً بلا حسّ ولا قلب .

ما أسهل الحرب على النظارة يا والدى العزيز ! وما أصعب غمارها وأشد أوارها على أولئك الذين يصطلون بنارها ويفغم أنوفهم دخانها وغبارها ! !

لقد طلبت إليك منذ أربع سنوات أن أتزوج فتاة من بلادى وجنسى ، وعلى دينى وحسى ، ولكنك أبيت كل الإباء ، ورفضت بعنف وشراسة تهدد وترعد وتوعد ، فلم أستطع إلا أن أسكت على خوف ، وأظهر الرضا على مضض ، وفي القلب لهيب حب تحت الرماد ، وفي النفس حسرات هوى تكاد تقتل .

ما أكثر ما كنت تعزينى عن ذاك الزواج وأنا أجلس إلى جوارك حزينا مطرق الرأس فتقول : صبرا صبرا يا بنىّ ، غدا تصبح طبيبا ، وسوف أفتح لك عيادة في أوسع شوارع عمان وأكثرها ازدحاما وحياة وحركة ، وسوف أعلق فوق باب العيادة لافتة كبيرة كتب عليها بخط كبير جميل اسمك مقرونا باسمى وباسم العائلة ، وسوف أزوجك فتاة من إحدى العائلات المعروفة ذات الصيت البعيد والسمعة الطائرة والسلطان الواسع .

لن يقفل في وجهك باب يا بنىّ حين تكون طبيبا ، ولن يردّ الناس لك طلبا ، كل فتاة في عصرنا الحاضر تودّ لو تصبح ذات يوم زوجا لطبيب ، وكل أم تقول لجاراتها وهى ترضع طفلها وتمسح يدها على رأسه إن ابنى هذا سيكون طبيبا .

يا بنىّ ستكون رجلا مشهورا حين تكون طبيبا ، فكيف ترضى أن تكون زوجا لفتاة مغمورة لا يكاد يعرف أهلها أحد ، سوف تعض على يديك ندما وحسرة يوم ترى فرق ما بينكما في المستقبل ، ولن ينفعك يومئذ حسرة ولا ندم .

ما أكثر ما كنت تقول يا والدى وما أكثر ما كنت تؤمل ، ولقد كنتُ حريصا على أن أكون عند ظنك وألبى نداء نفسك وأجيب هتاف قلبك ، ولكن البيئة التى أعيش فيها سدّت الطريق أمام ما كنتَ تؤمل و أمام ما كنت أريد .

من الآباء يا والدى العزيز طائفة كانوا يودون لو يكونون في هذه الحياة شيئا مذكورا ، فقصرت بهم العزائم أو حالت دون أمانيهم أحداث قاسية ومطالب عيش لا ترحم ، فهم يريدون أن يعوضوا أنفسهم ويعزوها بأن يروا ما فقدوه حيّاً ماثلا في أبنائهم ، فتراهم يرسمون لهم الخطط ، ويضعون لهم معالم الطرق ، ويصبون النصائح في آذانهم صبا ، ويلقون عليهم الأوامر والنواهى كأنهم جنود يعيشون في ثكنات عسكرية .

ولكن كثيرا من أولئك الأبناء الذين يعيشون في بلاد أجنبية الدم والدين يكونون في شغل شاغل عما يريده آباؤهم :

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى وإني وإيـــاها لمختلفـــان

على أننى سوف أسلك طريقا لعله يرضيك أو يخفف عنك ما بك ، طريقا ما كان يخطر لى على بال من قبل وما كان ليخطر لك أنت أيضا على بال ، ولكن هذا الزواج الذى نقمته هو الذى ساقه إلىّ وجعله سهلا لا حبا أمام عيني ، سوف آخذ جنسية هذه البلاد التى تعلمت في جامعاتها وتزوجت إحدى فتياتها وهأنذا اليوم طبيب في أحد مستشفياتها ، وبهذه الجنسية أستطيع العودة إلى وطننا الذى أخرجنا منه وإلى المدينة التى ولدت فيها وإلى دارنا المهجورة المغلقة الأبواب ، وسوف اتخذ شقة من شققها سكنا وأتخذ من أخرى عيادة ، وسوف أضع على مدخل الدار لافتة كبيرة أكتب عليها اسمى مقرونا باسمك وباسم العائلة كما كنت تأمل وترجو ، وسوف تكون هذه الأسماء كبيرة الحروف جميلة الشكل واضحة الرؤية إلى درجة أنها تقرأ بسهولة من الشارع المجاور ، وسيأتي يوم — أسأل الله ألا يكون بعيدا — تسترد فيه بعونه تعالى تلك الأرض المغصوبة وهذه المدينة المنكوبة ، وحينئذ تستطيع أن تجلس في حديقة الدار صباح مساء كما كنت تجلس من قبل ، وسوف يشير الوافدون على عيادتي للاستشفاء وهم يعبرون الحديقة جيئة وذهابا ، سوف يشيرون إليك بأطراف البنان وهم يتهامسون : والد الطبيب .

قد تحسب هذا خيالا أسوقه إليك ابتغاء مرضاتك وتخفيف وقع هذا الزواج على نفسك ، احسب يا والدى الحسبان الذى تشاء ، وظن الأمر كما تريد وتهوى ، فهذه هى الحقيقة قد جاوتها عليك واضحة ، وهذا ما آل إليه أمرى قد صورته لك صادقا قد تقول وأين كانت هذه الحقيقة من قبل ، ولم تصور لى ما آل إليه أمرك منذ البداية؟! ولم كلفتنى نفقات زواجك ثلاث سنوات وأنت على يقين أننى غير راض عنه ؟!

الناس يا والدى العزيز يحبون الحق ويحرصون على العدالة حين ينصّبون أنفسهم حكاما وقضاة ، أما حين يكونون غير ذلك فما أكثر ما تقف العدالة والصراحة وكلمة الصدق على أبوابهم طويلا تطرقها وتطرق وتطرق فلا يأذنون لها ولا يعتذرون.

لقد عشت أنت أيها الوالد العزيز أكثر من ثلاثين عاما موظف دولة ، أما حدث ذات مرة أن أمسكت عن قولة الحق وإبداء رأى الصدق حين كنت ترى بعض رؤسائك يبغون الأمور عوجا ويعرضون الرأى مبتسرا فجا ، ألم تك تنفذ بعض الأوامر وأنت تعلمها جائرة ، وتمضى بعض المعاملات على ما فيها من باطل ، ألم يحدث ذات مرة أن فعلت شيئا من ذلك حرصا على راتبك وإبقاء على وظيفتك ؟! على أنك لست في هذا بدعا بين الموظفين ولا فردا بين الناس ، فالموظفون كثيرا ما يقولون الكذب وهم يعرفون أين يكون الصدق ، ويأتون الباطل وهم يبصرون طريق الحق ، ويعتذرون عن ذلك بلقمة الخبز لأفراد الأسرة ، وكسوة الصغار الذين يدرجون في البيت ، وتعليم الكبار الذين يغدون على المدارس ، ولا يذكرون حق الدين وحق الفضيلة إلا كما يذكر الموتي وأسقاط المتاع .

علم الله أني لم أقصد بهذا إساءة إليك ، ولا كشف منقصة فيك ، ولا إذاعة عيب عنك ، وأنّى لي هذا ؟ ! ولكن الشيء بالشيء يذكر ، والحديث ذو شجون .

وفي ختام هذه الرسالة أقـــول :

من الخير يا والدى العزيز أن تسمح لابنك هذا بالعودة ، وأن تفتح أبواب بيتك لاستقباله ، وأن تمد جناح العطف والرحمة على هذا الزواج .

من الخير أن تسمح لهذا الولد الغريب أن يعود إلى بيت أبيه وأمه ، ومن الخير أن تجد هذه الزوجة الأجنبية أبواب البيت لها مفتوحة ، والقلوب التى في الصدور لها مشروحة

وإذا كنت تبتغى رضا الله وثواب الآخرة حقا ، وتحب ألا يضيع ما أنفقته سدى ، فمد أجنحة الحنان والرحمة على هذا الزواج ، وافتح الطريق أمام هذه الزوجة الحائرة كى تتعرف الإسلام من الواقع الذى تعيش فيه أسرتنا وأسر أخر تهتدى بهدى الإسلام وتستضىء بنوره ، غربها عن هذه البيئة التى تمسك بيدها كلما همت أن تمدها إلى الإسلام ، غربها عن هذه البيئة التى تشد قدميها إلى الأرض كلما همت أن تسير على طريقه ، أنقذ أولادنا من أن يصبحوا على غير دين أو على دين لا يعرفون من شريعته حكما ولا من قرآنه حرفا ، أنقذني أنا من قبل أن أنسى مناسك ديني ومن قبل أن يصبح قلبي خاليا من الإيمان ، تذكر قوله تعالى « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » وقوله تعالى « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

ابنك البـــار

الحضارة الإسلامية

لفضيلة الشيخ أحمد عبدالرحيم السايح

لفظ الحضارة في مفهومه الحديث ، ومفهومه العالمى المعاصر ، قد أصبح أكثر اتساعاً ، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوى التقليدى . . وإذا كان أصل الحضارة : الإقامة في الحضر . فإن المعاجم اللغوية الحديثة ، ترى ان الحضارة هى : الرقي العلمى ، والفنى ، والأدبي ، والاجتماعى ، والاقتصادى في الحضر . . وبعبارة أخرى أكثر شمولاً ، هى : الحصيلة الشاملة للمدنية ، والثقافة ، والفكر ، ومجموع الحياة ، في أنماطها المادية والمعنوية . . ولهذا كانت الحضارة هى : الخطة العريضة — كَمّاً وكَيْفاً — التى يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم ، ومنها الحضارات القديمة ، والحضارات الحديثة والمعاصرة . . ومنها الأطوار الحضارية الكبرى ، التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات ، من مرحلة إلى مرحلة . .

ولئن كان الإسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية ، فإن الواقع يبين للباحث والمفكر ، والدارس ، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها ، وعناصر وجودها ، وأسباب نمائها وازدهارها ، من الإسلام ذاته . . والإسلام كان ولا يزال دين الحضارة والإنسانية ، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة ، ودين معاملة ، وأنه أنشأ لوناً من الحضارة ، عرف باسمه ، وهو الحضارة الاسلامية . . لهذا نجد أن المستشرقين مدفوعين بدوافع شتى ، قد ظلموا الحضارة الاسلامية ، حينما أطلقوا عليها في مؤلفاتهم وكتاباتهم : الحضارة العربية أو حضارة العرب ، وهذا يدل على الجهل والتجاهل ، لأن

حضارة عربية بدون الإسلام لم تقم . .

وقد قامت الحضارة الإسلامية ، على دعائم أساسية ، جعلت منها حضارة عالمية متميزة ، وفريدة في تاريخ البشرية . . ومن ذلك . .

أولا : أن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية ، جعلت منه قوة فاعلة ، والشئ المهم في هذه القوة الفاعلة . أنها كانت أصلاً جذريايمس كل الأوضاع في حياة الناس .

ثانيا : أن الإسلام كان دين دعوة . . وفكرة الدعـوة في الاسلام ، قد واتتها ظروف الانتشار في النطـاق العالمى ، وفي ظلال الدعوة المستمرة ، تمكن الإسلام من نشر طابعه الحضارى ، كعقيدة للحياة ، وأن يصبح في أقـل من ربع قرن ، مقوماً أساسياً من مقومات الحضارة الإنسانية . .

ثالثا : كان الإسلام دينا سهلاً غير معقد ، ولا مركب في عقيدته ، وكان في الوقت ذاته ، دينا مباشرا ، يتصل فيه الإنسان بخالقه دون وساطة : « وقال ربكم ادعوني استجب لكم » ، « وإذا سألك عبادى عنى فإني قريب » ولا نجد عقيدة تطلب من الإنسان شهادة أبسط من شهادة الاسلام ، على عمقها وعظمتها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . عبارة سهلة رائقة نظيفة ، تقف بالعاقـل على عتبة الدخول في الإسلام ، موقفا سهلاً . والمقـوم الأصيل في هذه البساطة ، أن القرآن الكريم هو الوعاء الأساسى للعقيدة كلها .

رابعا : كان الإسلام دينا رحبا ، يدعو إلى سبيل العقل ، في حدود أصول العقيدة ، كما يدعو إلى سبيل الضمير ، والحق . . ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر ، وإلى المعرفة ، أساساً من أسس الدعوة الإسلامية ، وكان التفتح البصير مفتاح الدعـوة للحضارة . .

والإسلام في رحـابته الحضارية ، استطاع أن يمتص ألـوان الحضارات في البلاد التى أوقـد فيها قناديل الضياء ، وأن يسبغ عليها طابعاً إسلاميا شاملاً . .

خامسا : البيئة بعواملها المحلية ، وموقعها الجغرافي ، قد ساعدت على إعطاء الحضارة الاسلامية ، ما كان لها من طابع ، ومن مكانة . . ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها ، منطقة وصل بين أطراف العالم ، عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم « أسيا وافريقيا وأوربا » . . ومن شواطئ الجزيرة العربية ، تمتد بحار الشمال ، بادئة بالبحر الأبيض المتوسط . وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر ، والخليج الإسلامى (١) . . وقد كان عـدم

(١) التسمية بالخليج الاسلامي هي افضل طريقة امام تحديـات العصر

اتصال المياه بين الشمال والجنوب ، سببا في أن شبه الجزيرة العربية ، كانت نقطة تغيير ، في وسائل المواصلات ، وفي ظهور الوساطة التي كتب للمسلمين أن يقوموا بها . . ولم يكن الأمر بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على أهميته ، وإنما كان الأمر أوسع وأعمق ، فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ، ومن ناحية السلوك الإنساني ، ومن ناحية الاعتدال في كل ما يتصل بالمادة وهي أمور كلها اتصلت بطبيعة البيئة العربية . ومن هذه البيئة الوسط ، انتشر الإسلام شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، بالبر والبحر على السواء . . وقد شاء الله سبحانه وتعالى ، أن تستيقظ الجزيرة العربية في القرن الرابع عشر الهجرى ، الموافق القرن العشرين الميلادى ، والقرن العشرون يعتبر أزهى قرون الحضارة في الغرب . شاء الله أن تقوم — في الجزيرة العربية — المملكة السعودية ، على أساس القرآن الكريم ، لا على أنه المادة الأولى أو الثانية من الدستور ، كما تفعل كثير من الدول التى يقال عنها ، عربية وإسلامية . ولكن على أساس أنه هو كل شئ ، في التعليم ، وفي التوجيه ، وفي الحكم ، وفي السياسة ، وفي الثقافة ، وفي جميع نواحى الحياة . . وقد قامت في السعودية نهضة علمية وثقافية جبارة ، جعلت الجامعات تعمل في إعداد كامل ، لمؤتمرات إسلامية جامعة ، مثل مؤتمر الفقه الإسلامى ومؤتمر العلم والتكنولوجيا ، ومؤتمر الاقتصاد ، ومؤتمر الشباب ، ومؤتمر الدعاة ، ومؤتمر المساجد ، ومؤتمر المذيعين ، وصارت الجامعات والكليات ومعاهد العلم ، تصدر صحفا ، ومجلات ذات دراسة وعمق ، معدة إعدادا يتفق مع ما وصلت إليه الطباعة من تقدم . . ولا شك أن هذا كله دعامة من دعامات الحضارة الاسلامية القائمة على الإسلام . . حتى لا يأتي إلينا مخرف من الشرق ، أو من الغرب ، فيقول إن حضارة الاسلام قد شاخت وهرمت . . شاء الله أن تظل تجربة الحكم بالقرآن الكريم ، قائمة في أرض الجزيرة العربية ، كما كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الخلفاء الراشدين . .

سادسا : الوسطية التى جاء بها الإسلام ، والوسطية التى جعلت فيها الأمة الاسلامية وشرفها الله بها . . ليست الوسطية

المبتدعة في الفكر المستورد الحديث . فالوسط المبتدع في الفكر العصرى ، وسط عفن ، قام بين تراكمات عفنة من اليمين واليسار . ولا شك أن اندفاع بعض المجتمعات الإسلامية إلى هذا الوسط العفن ، وما جاء حوله من يمين ويسار ، يعد عند الدارسين لتطور الشعوب ، كارثة فكـرية خطيرة ، وردة جاهلية وثنية .. والوسطية الاسلامية وسطية عامة شاملة ، لا تعترف بتقسيم اليمين والوسط واليسار . بل إنها :

١ – في العقيدة تقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة . .

٢ – وفي التشريع تقوم على أصول رئيسية ، مصدرها الأساسى : القرآن الكريم ، وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

٣ – وفي الأخلاق تقوم على خلوص النية ، ونقاء الضمير ، والتمسك بقيم الخير ، والحـق ، والتزام الآداب الفردية والاجتماعية . .

٤ – وفي الاجتماع تقوم على الأسرة المتماسكة القائمة على ركائز المودة ، والرحمة ، والإخلاص ، والاحترام والتعاون . .

٥ – وفي السياسة تقوم على الشورى ، واحترام حقوق الإنسان ، والتزود بكل أسباب القوة ، والدفاع عن العقيدة . .

٦ – وفي الاقتصاد تقوم على تبادل المنافع ، واتخاذ المال وسيلة لا ، غاية واحترام الملكية الفردية . .

٧ – وفي الثقافة تعتمـد على طلب المعرفة ، واستخدام العقل في كسب المعارف . .

٨ – وفي الفكر تقوم على استنهاض العقول ، وحرية الفكر ، واستقلال الإرادة . .

فأى وسطية أسمى من هذه الوسطية التى ارتضاها الله ، وجعلها سمة هذه الأمة الاسلامية ، ذات الحقيقة الكبيرة ، والوظيفة الضخمة في هذه الأرض ، ويقول في ذلك شهيد الأمة الاسلامية سيد قطب : « إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعا ، فتقيم فيهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدى فيهم رأيها . . فيكون هو الرأى المعتمد ، وتزن قيمهم ، وتصوراتهم ، وتقاليدهم ، وشعاراتهم . فتفصل في أمرها ، وتقول : هذا حق منها ، وهذا باطل . . لا التى تتلقى من الناس تصوراتها ، وقيمها ، وموازينها وهى شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم . وبينما هى تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول هو

الذى يشهد عليها ، فيقرر موازينها وقيمها ، ويحكم على أعمالها وتقاليدها ، ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة . . وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ، ووظيفتها ، لتعرف وتشعر بضخامتها ولتقدر دورها حق قدره ، وتستعد له استعداداً لائقا . . وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط . سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الأعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادى الحسى .

« أمة وسطا » في التصور والاعتقاد . لا تغلو في التجرد الروحى ، ولا في الارتكاس المادى . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد . أو جسد تتلبس به روح . وتعطى لهذا الكيان المزدوج الطاقات ، حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها ، في الوقت الذى تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها . وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق . وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط : في قصد ، وتناسق ، واعتدال . .

« أمة وسطا » في التفكير والشعور ، لا تجمد على ما علمت ، وتغلق منافذ التجربة والمعرفة . ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك ، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب . . وشعارها الدائم : الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها أخذها ، في تثبت ويقين . .

« أمة وسطا » في التنظيم ، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب . إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذة وتلك . فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحى الوجدان ، ولكن مزاج من هذا وذاك .

« أمة وسطا » في الارتباطات والعلاقات لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشى شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ، ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً ، لا هم له إلا ذاته . . إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدى إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة ، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد ، في تناسق ، واتساق . .

« أمة وسطا » في المكان ، في سرة الأرض ، وفي أوسط بقاعها ، وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضها الإسلام ، إلى هذه اللحظة . . هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال ، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا وتشهد على الناس جميعا ، وتغطى ما عندها لأهل الأرض قاطبة ، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة ، وثمار الروح والفكر ، من هنا إلى هناك ، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء . .

« أمة وسطا » في الزمان ، تنهى عهد الطفولة البشرية من قبلها ، وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها ، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام ، وخرافات ، من عهد طفولتها ، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ، وتزاوج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلى المستمر في النماء ، وتسير بها على الصراط السوى بين هذا وذاك » . فالأمة الإسلامية ليست في حاجة إلى الأحزاب التى أوجدها ورعاها التبشير الصليبى . . وليست في حاجة إلى التقدمية ، والثورية ، واليمين والوسط واليسار . . وليست في حاجة إلى اشتراكية المنحرفين ، من سماسرة الشيوعية ، والدجل الفكرى ، وليست في حاجة إلى تعدد المنابر ، واستيراد ما هب ودب . . وليست في حاجة إلى تجارب الأمم . إذن وبدون شك . الأمة الاسلامية في حاجة إلى الاسلام ، والاسلام فقط . .

سابعا : القرآن الكريم ذاته . وذلك أن القرآن كان أعظم ما عرفته الإنسانية في تاريخها الممتد الطويل . . وقد تضمن القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الإنساني السليم . تتشده الإنسانية فتجد فيه مبتغاها من التشريعات الفردية ، والعلائق الأسرية ، والمعاملات الاقتصادية والحربية ، والقوانين المدنية ، والأنظمة الدولية ، وبعبارة أوجز . . تجد فيه الأمة كل ما تحتاج إليه في حياتها العامة والخاصة ، الدين والدنيا . .

ثامنا : اللغة العربية نفسها كانت دعامة من دعائم الحضارة الاسلامية ، وذلك لأنها أعرق اللغات منبتا ، وأعزها جانبا ، وأقواها جلادة ، وأغزرها مادة ، وأدقها تصويراً لما يقع تحت الحس ، وتعبيراً عما يجول في النفس . .

وعندها من المرونة على الاشتقاق ، والقبول للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب . ما يمكنها من الاستمرار

في عطائها ، نزل القرآن بلساتها فجعلها أكثر رسوخا ، وأشد بنيانا ، وأقوى استقرارا . وبفضل القرآن ، صارت العربية ، أبعد اللغات مدىً ، وأوسعها أفقا ، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية ، عبر التطور الدائم الذى تعيشه الإنسانية . واستطاعت العربية في ظل عالمية الإسلام ، أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وترتقى حتى تصل أرقي اختلاجات النفس ، وليس هناك معنى من المعاني ، ولا فكر من الأفكار ، ولا عاطفة من العواطف ، ولا نظرية علمية من النظريات ، تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات ، وتجسيده داخل الكلمات .

تاسعا : وبجانب هذا وذاك ، كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية ، تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الإسلام ، ثم بالعنصر البشرى ، والتكوين السكاني. فأما عن العصر ، فقد كان الإسلام ختام الأديان السماوية ، وكان الإسلام بذلك رباطا لها من الناحية التاريخية ، كما كان في الوقت ذاته تصحيحا لها لما أصابها من تحريف الفلاسفة والوثنيين..

ولقد كان هذا كله ، قوة دفع للفكر الإسلامى ، وما اتصل به من حضارة ، ومن هنا انطوى التفاعل الإسلامى على قوة غلبت كل التحديات الجاهلية ، فانتشر طابع الحضارة الإسلامية على فعالية ، لم يعرف لها مثيل في تاريخ الانسانية . .

عاشرا : ومما يذكر أن ترسيخ معالم الحضارة الإسلامية ، قد تضاعف بفعل مقوم إنساني آخر . . وهو تنوع السلالات التى دخلت في الإسلام ، ثم هناك ظاهرة أخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل ، وهى ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمنى في الحضارة الاسلامية . . ومن وراء كل ذلك هناك الإيمان بالله ، فهو القوة الدافعة الموجهة التى تسند الضعيف من أن يسقط ، وتمسك القوى من أن يجمح ، وتعصم الغالب من أن يطغى ، وتمنع المغلوب من أن ييأس . .

وقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس القرآن ، هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة ، واعتدل في أيديهم ميزان الحق ، والعدل . .

ولقد كانت المملكة الإسلامية تزدهر بالعلم والحضارة شرقا وغربا ، وتنتشر فيها أرقي الصناعات على اختلافها ، وما تركه المسلمون من تراث علمى ، لأكبر شاهد على ذلك . .

ولقد تلمست أوربا الحضارة الاسلامية ، فاستقت من روافدها العلوم والمعرفة من الفلك والجبر والهندسة والحساب والكيمياء والطب والزراعة ، وسائر أنواع الفنون الحضارية . وبنى رجال أوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالأندلس ، وبما نقلوه من علوم . . بنوا أسس النهضة الحديثة التى ظهرت بوادرها في القـــرن الثامن عشر ، وازدهرت في القرن العشرين . .

والإسلام بدعوته إلى العلم هو الذى خرج جهابذة الفكر ، ورجال الحضارة ، أمثال ابن الهيثم ، وابن البيطار ، وابن سينا ، وابن النفيس ، وابن زهر ، وابن بطوطه . والكندى ، والفارابي ، والبيروني ، والطوسى ، والدينورى ، والبغدادى ، والرازى ، والقزوينى ، والأنطاكى ، والخوارزمى ، والإدريسى والمسعودى ، وجابر والحافظ ، وغيرهم ممن أفادوا الإنسانية . وهذا ابن الهيثم يبحث في السهول والأودية ، ويجول فيها طولاً وعرضا ، حتى يضع قواعد علم الضوء . وابن الدجيلى ، يسهر على قمم الجبال العالية ، يحدق في الكواكب والنجوم ، ليحد أفلاكها ، ويعرف أبعادها ، ويقيس محيط الكرة الأرضية . وعبد الله الخوارزمى العالم المسلم الذى ولد في إقليم خوارزم (١) ، أول رجل في العالم يضع أصول علم الجبر ، وفي كتابه « الجبر والمقابلة » يقسم العلماء إلى ثلاثة أقسام : فمنهم المخترع المبتكر الذى لم يسبق إليه ، ومنهم الذى يتناول أراء العلماء قبله بالشرح والتفصيل والتوضيح ، ومنهم الذى لم يكلف نفسه أكثر من جمع المتفرق . .

وأبو الريحان محمد البيروني الذى ولد في بيرون ، وهى مدينة صغيرة تتبع مدينة خـــوارزم . يساهم في الفلك والرياضيات ، بمساهمات فعالة . وابن النفيس العالم الدمشقى ، يجرى التجارب والاختبارات ، حتى يثبت أن الدم ليس سائلا مستقرا في الأوردة والشرايين . بل هو سائل متحرك ، يدور في جميع أجزاء الجسم ، وذلك قبل أن يكتشف العالم البرتغالى (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون . .

وابن مسكويه ذلك المفكر الاسلامى الكبير الذى طرق الدراسات الأخلاقية والنفسية ، فذلل متونها ، وسبق علماء أوربا ، فيما وصل إليه من النظريات النفسية والسلوكية . . هذا كله في

١ ـ اقليم خوارزم هذا من الاقاليم الاسلامية التى كانت عامرة بالعـــلم والعلماء ، وهو واقع الان فى قبضة الاستعمار الشيوعى الروسى ..

الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش في ظلمات الجهل والهمجية ، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التى كانت واقعة فيها إلا نور الإسلام . وما زالت أسماء العلوم والمصطلحات التى أعطاها العلماء المسلمون لغرائب العلم ، ما زالت حية في جميع اللغات رغم ما مر عليها من تحريف وتغيير . . ولقد سجل التاريخ الحضارة الاسلامية باعزاز . وتقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هـــونكه ، في كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » تقول : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة ، وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة » . .

وإن من ينعم النظر في أعماق الحضارة الإسلامية ، وما حققته للإنسانية من أسباب النمو ، وعوامل الازدهار ، ويلم بما جاء به الفكر الاسلامى ، من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة . إن من يتعمق في ذلك ، يدهشه مدى عمق التفكير الواعى الذى بلغ ذروته علماء الاسلام ، وقد يتضاعف إعجاب الباحث ، بهذا الفيض الزاخر ، من الجهود العلمية التى شرقت بالحضارة وغربت ، وملأت الدنيا بإشراقها . .

وربما تزداد دهشة الباحث العاقل ، والمفكر الناصح ، ويتعاظم تمجيده لحركة التحول الخطيرة التى أصابت المجتمع العربي ، في تلك الفترة القصيرة . ترى أى سر هذا الذى استطاع أن يحول عرب الصحراء ، وهذه الشعوب المتفرقة . . إلى أساطين في العلم ، ومشاعل في الحضارة ، ومنارات في الثقافة ؟ وأى قوة رفعت العرب من حال البداوة التى كانوا عليها إلى أبطال وقادة ، يفتتحون أعظـــم الممالك وأوسعها ، ويجولون في الأرض غير هيابين ولا وجلين . . ؟ . . وأى دعوة هذه التى حولت الناس من الجهـــل والجاهلية والمذاهب الوضعية ، إلى النور الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور . . ؟

ليس من المعقول في نظر المفكر . . ولا من المقبول في نظر الباحث . . ولا من المعروف في نظر الدارس . . أن يطفر الفكر العربي الذى قيدته ظروف الحياة القبلية الآسنة اليبوس . . إلى مثل هذه المرتبة العالية ، دون أن تكون هناك الأسباب القوية التى دفعت به إلى الحياة المتحركة دفعا . . فما هى تلك الأسباب التى استقى منها الفكر الإسلامى ، مادة حيويته وحركته ؟ وما هى الموارد

التى نهل منها أسباب تكامله . .

إن المنبع الأول والأصيل الـذى استقى منه الفـكر أسباب تقدمه ونمائه ، هو القرآن الكريم ، فهو السر الكامن ، وهو القوة المحركة ، وهو الدعـوة القائمة المستمرة . . وذلك أن القـرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبـادة وتوحيد الله فحسب ، وإنما كان إلى جانب تأكيد وحدانية الله ، وما يتبعها من عقائد وعبادات . . منبعاً أصيلاً من منابع الحضارة ، ولقد كـان أول أثر من ثار القرآن في الحضارة الإنسانية ، الاهتمام الواسع بالعلم ، وذلك أن العلم عنـوان التقدم الحضارى . . ولقد كانت عناية القرآن بالعلم ، تفـوق حد الوصف واستطاعت توجيهات القرآن العلمية أن تكوّن منهجا علميا سليما ، حـدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة .

ومن هنا كان التفكير العلمى في الاسلام ، يقـوم على الموضوعية ، والصدق ، ومن الحوادث البالغة الدالة على العقلية الموضوعية ، لـدى الفكر الإسلامى ، ما حدث مصادفة ، أن كسفت الشمس يوم مات ابراهيم بن محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فقال قوم إنها كسفت لموت إبراهيم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لمـوت أحد ولا لحياته » . وبهذا قرر الرسول الصادق ، مبدأ علميا ، يعتمد عليه المسلمون ، فيما يتصل بالكـون وما فيه »

وفي حادثة فيضان نهر النيل ، بإقليم مصر الإسلامى ، موضوعية علمية ، تنبئ عن نظافة الفكر الإسلامى . . حيث كان الاعتقاد قبل الفتح الإسلامى ، أن النيل لا يفيض بالماء ، إلا إذا ألقيت فيه فتاة حسناء ، لتموت فيه غرقا . فلما حـان وقتذاك . كتب الحاكم عمرو بن العاص ، والى أمر مصر ، إلى خليفة المسلمين عمر بن الخـطاب ، في المدينة المنورة ، عاصمة الخـلافة الإسلامية ، يخبره بما تعود عليه المصريون فأجابه عمر بإرسال رسالة ، يلقيها في النيـل ، وكان في الرسالة : « من عمر أمير المؤمنين إلى النيل إن كنت تجرى من عندك فلا حاجة لنا بك ، وإن كنت تجرى بفضل الله ، فاللهم بارك لنا » .

وفي ميدان التطبيق العملى ، نجد أن عمر بن الخطاب في خلافته ، قد أمر بقطع شجرة الرضوان ، لأن بعض الناس قـد أسبغ عليها صفات غير موضوعية . . هذا وأمثاله مظهر للتفكير

العلمي الموضوعي لدى المسلمين ينبئ لكل عاقل أن الإسلام هو الدين الحق والصراط المستقيم .

ولهذا كانت للمسلمين حضارة ، وعلوم ، ومخترعات . . كانت هناك تشريعات وفلسفة ، وقوانين ، وطب ، وفلك ، ورياضيات ، وأدب ، واجتماع وتاريخ وجغرافيا ، وكيمياء ، وآداب للسلوك . . وكان لكل هذه العلوم أساتذة عباقرة ، كأئمة الفقه ، وعلماء النفسير ، ورجال الحديث ، الذين خرّجوا المسائل والأحكام الفقهية ، وضبطوا أساليب النقد ، وقعّدوا قواعد التشريع . . ويذكر لنا التاريخ عشرات المئات من العلماء في كل فن : . أصبح هناك قادة وحكام لم يعرف التاريخ لهم مثيلا . . وهم لم يدخلوا الكليات الحربية ، ولم يدرسوا في مدارس عسكرية . . ولكن دخلوا شيئا واحدا ، هو كلية القرأن الكريم ، ومدرسة الإسلام الحنيف . . وهناك مدن امتلأت بالعلم والعلماء ، ومعاهد الحضارة ، مثل : القاهرة ، وبغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، وبخارى وغيرها من العواصم التى تزخر بكل ألوان الحضارة . . وكانت هناك دول وممالك ، في الشرق والغرب ، بسطت نفوذها الإسلامى وعقيدتها ، وعبقريتها ، وشرقت وغربت حتى نشرت الفكر الصحيح . . وكل هذا كان بفعل الاتجاهات القرأنية التى غرسها الإسلام ، في قلوب الناس ، والتى أدت إلى تنمية القوى العقلية في الإنسان المسلم ، ففتحت أمامه آفاقا واسعة لا حدود لها » .

واليوم على الغيورين أن يدرسوا حال المسلمين ، الذين ابتلوا بالأفكار المستوردة ، والأحزاب الحمراء المتنمرة . لنرى هل يمكن أن تعود حضارة المسلمين ، وتشرق من جديد ، فتنقذ الإنسانية من بلاء الإلحاد ، وحضارة المادية العفنة . . وقبل أن نقرر إمكانية عودة الحضارة الاسلامية اضع أمام القارئ الحقائق التالية :

أولا : العالم الإسلامى حباه الله بأعظم النعم ، اذ يتربع على كنوز ثمينة ويربض على ثروات معدنية هائلة ، ويملك من حقول البترول أجداها نفعا ، وأكثرها سخاء وثراء ، وأقواها تدفقاً وعطاء .

ثانيا : يملك العالم الاسلامى من شواطئ البحار والأنهار ، والممرات ، والطرق ، البرية ، والبحرية ، والجوية ، ما يجعله في مركز القيادة ، ويمكنه من المساهمة والاشراف والتحرك الفعال .

ثالثا : مناطق الثقل في العالم الإسلامى بعيدة عن القطبين ، ومصونة من الأعاصير ، والطوفانات ، والثلوج ، والمد والجزر ، والبراكين وهذا يتيح لها ما تستطيع به العمل والتقدم . .

رابعا : العالم الإسلامى غنى بالمحاصيل الزراعية ، والانتاج الحيواني ، مما يمكن من قيام صناعات متقدمة ومتطورة.

خامسا : يعيش العالم الاسلامى اليوم في يقظة واعية ، وصحوة صحية ، إذا أحسن توجيهها ، أثمرت . .

تلك وغيرها أمور تجعل العالم الإسلامى ، قوة ايجابية ، مرهوبة الجانب مهيأة لانقاذ الإنسانية من وهدة الضياع . .

ولا شك أن الأمور الخمسة المذكورة مع ما سبق ذكره من مقومات الحضارة الإسلامية ، هى أسباب قيام حضارة كاملة . . ومن هنا نقول في غير تردد ، إن عودة المسلمين إلى إقامة حضارة إسلامية ، أمر ممكن ، ولا يحتاج منا إلى أن نجرب أنظمة الأمم ، ولا أن نتمسك بأحزاب بعثها المخربون ، ولا أن نقسم الأمة إلى انظمة وجبهات ، ولا أن نمزق المجتمع الواحد إلى يمين ووسط ويسار ، واشتراكيين وأحرار .. وإنما يحتاج إلى أمر واحد فقط هو الاسلام . الاسلام سلوكا وعملا ، والاسلام ثقافة وتربية ، والاسلام نظاماً وحياة ، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها . والله الموفق . .

أحمد عبد الرحيم السايح
مصر العربية — القاهرة — مدينة نصر
المنطقة الأولى — ١٤ شارع الرياضة

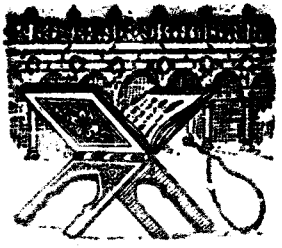

تأملات في كتاب (الله أو الدمار)

لفضيلة الشيخ محمد مصطفى المجذوب

بين يدى الساعة كتاب (الله . . أو الدمار) من تأليف الاستاذ سعد جمعه رئيس الوزارة الأردنية أيام النكبة ، التى زلزلت العالم الاسلامى عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) وقد سبق أن قرأت من تصانيفه كتابيه (المؤامرة ومعركة المصير) ثم (مجتمع الكراهية) فحفزني اعجابي بهما على تصفح هذا الثالث ، الذى لم يفارق سبيلهما في تقصى الوقائع واستشفاف الحقائق بنور الله ، الذى يفيضه على القلم النظيف ، فيهز بما يكتب القلب المفتوح لأشعة الحق .

لقد وُفّق المؤلف في هذا السفر الى استجلاء كثير من الاسرار ، التى لا يتوافر الحصول عليها الا للصابرين على المطالعة والمتابعة والملاحظة ، فهو حصيلة عشرات الكتب ، وخلاصة لدراسات نفسية على الطبيعة ، تغلغل بها الى الاعماق من التيارات التى واجهها ويواجهها اثناء وجوده في الحكم ، واستشرافه عن كثب للعوامل التى ألفت عناصر المأساة ، ثم ما أعقبها من زعازع لا تزال تخض أعصاب الجيل فتبعثره بين مختلف المذاهب والجوانب . ولو شئت الاشارة الى كل ما انطوى عليه هذا الجهد من الحسنات لاضطررت الى الوقوف عند كل واحدة من صفحاته المئتين والسبعين ، التى حفلت بالقبسات البارعة ، والاستنباطات الرائعة ، والتعابير المتألقة الماتعة ، وما ذلك بالميسور في المحدود من السطور ، فحسبى اذن أن أوجه نظر القارئ منها الى بعض النماذج الدالة على ما وراءها من الجمال ، لينهض الى استقصائها

بنفسه فذلك أجدى عليه وأمتع له .

في صدر الفصل الخاص بالتبشير والاستعمار مثلا يقف المؤلف على عمل المستشرقين في تمجيد ما يسمونه (التصوف الاسلامى) لقربه في زعمهم من المفهومات المسيحية (فهم لذلك يسوغون عقيدة الحلول والفناء عند الصوفية التى تدعو الى الرهبنة والانعزال والهروب من مشاكل الحياة ، وصرف المسلمين عن فكرة الجهاد (١) ومع أن المؤلف لم يطل وقفته هناك ، فقد قدح بها رغبة القارئ في تتبع مجارى هذه المكيدة الاستشراقية ، ليرى مدى نجاحها في استهواء العديد من طلابهم المسلمين ، ودفعهم الى التشبث بهذه الانحرافات ، بعد أن تمكنوا من الاستحواذ على إعجابهم ، فعادوا الى مواطنهم يبثون في قلوب العامة وأشباههم هاتيك السموم ، ويتعهدون تغذيتها بكل ما أوتوا من طاقة ونشاط . .

ويتتبع المؤلف آثار المستشرقين والمبشرين في أوساط البعثات التعليمية (التى عادت محملة بخمائر المذهبيات الأوربية . .) وراحت تحقق أغراضهم في بث الخلافات الايديولوجية التى صدعت الشمل ، ونشرت بذور التشكيك . وضرب على ذلك مثلا بطه حسين الذى حمل دعوة هؤلاء الشياطين للانفصال عن الاسلام ، والاندماج في بناء الحضارة الغربية بعُجَرها وبُجَرها . . ثم يخص بالذكر الشيخ على عبد الرازق ، الذى يعرضه كعينة لما يمكن لعدوى الاستشراق والتبشير أن تعمله حتى في أفكار بعض علماء الدين . وينقل هنا رأى الدكتور محمد البهى في نقد كتاب هذا الشيخ (الاسلام وأصول الحكم) ومهاجمته فيما حواه حيث يلخص مضمونه بأنه دعوة صريحة لتهديم النظام الاسلامى بابطال الجهاد ، واعتبار الشخصية الجماعية في الاسلام قد انتهى أمرها بوفاة صاحب الرسالة — كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا —

ولقد أحسن المؤلف صنعا حين نقل في امثال هؤلاء ، الذين خرَّبهم المستشرقون والمبشرون ، شهادة (جان بول سارتر) في مقدمته لكتاب (معذبو الأرض) المترجم الى العربية وفيها يقول (شرعت الصفوة الأوربية تصطفي فتيانا مراهقين ، ترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادئ الثقافة الأوربية ، وتحشو أفواههم بشعارات رنانة ، ثم تردهم الى ديارهم وقد زُيِّفوا ، واستحالوا أكاذيب حيَّة (٢) . .) وانها لشهادة دامغة لهؤلاء الناعقين بأبواق الغرب يطوقهم

---

١ — ص ٦٣ ق ٣

٢ — ص ١٢١

بعارها واحد من أساطين الهدامين الذين أسهموا في افسادهم . .

ومثل ذلك تصويره للخصائص اليهودية التى جمعت أولئك الشذاذ على اقامة اسرائيل حتى ينتهى بالقارئ الى ذلك المشهد الرهيب حيث احاطت جماهير اليهود بحائط المبكى ، يـوم السابع من حزيران لتقيم صلاة النصر ، وهى تهتف بأصواتها المـدوية : ليسقط . . اليوم انتهى محمد . . محمد مات وخلف بنات يالثارات خيبر ! ! !

ثم يردف ذلك العـرض الفاجـع بهذا التقريع الصادع : (لم يهتفوا ضد ناصر أو الاتاسى أو عارف أو الحسين ، أو غيرهم من قـادة العرب وزعمائهم لأن هدف المؤامرة هو محمد والاسلام .)

وانها والله لكذلك . .

فـوا محمداه . .ووا اسلاماه ! ! !

وبعد . . فتلك لمحات عجلى من روائع ذلك السفر لا تغنى عن قراءته في تدبر . . وان عنوانه (الله . . أو الدمار) لأدل على مضمونه من اى محاولة لتعريفه اذ هو حشد من البراهـين الحاسمة ، تلاقي على صياغتها التاريـخ والعلم والأحـداث ، والدراسات النفسية والاعترافات الصارخة ، على اننا نحن العرب والمسلمين ، بل والبشرية أجمعين مهددون — بعد الضياع — بالدمار الماحق ، الا ان نعود الى الله ، ونعتصم بحبله الذى لا ينفصم : الاسلام .

ولكم كنا نود لو تمت له ميزة السداد ، فسلم من بعض الهفـوات التى رأينا التنبيه اليها في هذا التعقيب ، خدمـة للكتاب ، وتعاوناً على الخير الذى يهدف اليه الكاتب .

١ — في القسم الخاص بالحديث عن مفاسد المبشرين من مقدمة الكتاب يعرض المؤلف صـورا باهـرة عن تسامح الاسلام ، وعن آثار المسلمين في ميادين العلم والحضارة ويستشهد لذلك بكلام من مؤلفات بعض المستشرقين . وهو منهج سليم ومفيد ، الا أن بعض نقوله تكـاد تتجاوز الضرورى بل تكاد تؤدى الى غير ما يريد ، ونمثل على ذلك بما نقله عن المستشرق (اميل درمنجهايم) في ص ٥٨ ، ٥٩ عن موضوع الصلة بين الاسلام والنصرانية ، ومحاولة هذا المستشرق تصوير الصلب الذى يزعمونه للسيد المسيح ، على أنـه متفق مع تفسير بعض مفكرى المسلمين — كذا — اذ ينسب لهؤلاء القـول بأن المسيح قد صُلب ولكنه لم يمت على الصليب ، بل أنزل عن صليبه قبل أن يلحق روحه بالرفيق الاعلى وهو زعـم لا نعرف

له قائلا في تاريخ الاسلام . اللهم الا ان يكون من المأخوذين بترهات هذا الأفاك . . الغافلين عن حكم الله بأنهم (ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . .) وقد أجمع علماء القرآن على ان المراد بالتشبيه القاء شبه السيد المسيح (ع) على شخص الخائن يهوذا حتى أخذ مكانه ، وهو ما أثبته برنابا في انجيله المعروف . ومع ذلك فان المؤلف سامحه الله يكتفي بعرض هذه المفتريات دون معارضة ولا مناقشة سوى قوله (ليس قصدي من ايراد هذه النصوص الخوض في مناقشات دينية أو التسليم بكل ما احتوته . .) وانما عمد الى ذلك النقل ليثبت مدى رعاية الاسلام للنصارى ، تألفاً لهم وتطميناً لقلوبهم . وقد كثر هذا الضرب من المعاملة لهؤلاء المواطنين وبخاصة في هذه الايام ، حتى كدنا نهتم بالملق ، دون أن يعود ذلك على قضايانا المصيرية بأي مردود مفيد . وأمامنا الامثلة القاطعة على هذا الاخفاق في لبنان ومصر والفلبين واندنوسية ، وعشرات الاقطار التي أطبقت عليها كوابيس التعصب الصليبي فلم تراع فيها الا ولا ذمة . . وكان الأحرى بنا والأكرم أن نعاملهم بعدالة الاسلام وصراحته ، فنخاطبهم بما خاطبهم الله (قل يا أهل الكتاب . تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ٦٤/٣) ونؤكد لهم في تصميم حاسم اننا ملتزمون معهم أبدا بالمبدأ الآلهي الخالد (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ٨/٦٠) فما داموا سلماً لنا ، مخلصين في معاملتنا ، فلهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، بل لهم فوق ذلك منا حق البر لهم الذي هو زائد على العدالة . . ولعمر الله ان لم يرضهم منا هذا كله فلن يرضيهم اسرافنا في التزلف اليهم بالغا ما بلغ ذلك الاسراف .

٢ ـ وفي القسم الأخير من الكتاب يتناول المؤلف الفاضل أوضاع المجتمع القائم في ديار الاسلام ، فيعرض للتناقضات الماثلة بين طبقاته وحقائق الوحي ، وفي أسف عميق يتساءل : (أليس من عجائب دهرنا ومصائب زماننا ان يصبح علماء الاسلام في بعض

البلاد العربية هيئة دينية كالاكليروس مهمتها اللهاث في مواكب الحاكمين والركض في ركابهم ، والافتـــاء لتشريعاتهم المخالفة للاسلام ! . .)

وهو في هذه الزفـــرة اللاذعة انما يعبر عن ضمائر المؤمنين في كل مكان من عالم الاسلام . . غير انه في صدد النقـــد لبعض هؤلاء العلماء يحدثنـــا عن واحد من أساتذة كلية الشريعة في بلد عربي سمعه يخطب في احدى المناسبات الدينية فيقول (ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى الإنس وحدهم ، بـــل الى الانس والجن جميعا . .)

يقـــول المؤلف : هذا التقـــرير القطعي الذى لا سند لـــه من قرآن أو سنة . . ومن أجـــل ذلك عـــاد إلي كتاب الله يكرر قراءته ، والى الحديث الصحيح يتلـــوه مجتهدا ، فلم يجد دليـــلا على أن رسول الله قد اجتمع برهط من الجن ليبلغهم رسالته . . ثم يأخذ في سرد الآيات المتعلقة بذكر الجن وبرسالته صلى الله عليه وسلم ليؤكد لنا ما ذهب اليـــه من نفى لدعـــوى ذلك الاستاذ ! .

وانا مع تقديرى الكبير لمجهود المؤلف واخلاصه العميق للحـــق ، اجـــدني مضطرا للوقوف بجانب ذلك الاستاذ ، لاني من المؤمنين بشمول رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم للثقلين جميعا . وفي اعتقادى ان الاستاذ المؤلف أيضا لن يتردد طويلا حتى ينضم الى صف المؤمنين بهـــذه الحقيقة ، بعد الاطلاع على دلائلها القاطعة ان شاء الله .

ولننظر الى الموضوع من زوايـــاه المختلفة ، ففى كلام الاستاذ المؤلف حفظه الله أمـــور تقتضى التفصيل :

١ — انه ينفى اجتماع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأى رهط من الجن

٢ — ومن ثم فهو ينفى أن يكون صلى الله عليه وسلم قد بلغ الجن

٣ — يفهم الاستاذ المؤلف من قوله تعالى (يامعشر الجن والانس . ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) . . ان لكل من الفريقين رسلا من جنسه ، فللإنس رسلهم من الإنس ، وللجن رسلهم من الجن

٤ — ويستشهد لذلك بقوله تعالى في خطاب محمد صلى الله عليه وسلم (وأرسلناك للناس رسولا . .) اذ يفهم منه حصر رسالته صلى الله عليه وسلم بالناس دون غيرهم .

وعلى هذا فسنتناول كلاً من هذه النقـاط على حدة حتى ننتهى الى النتيجة المقنعة .

ونبدأ بالأول فنقول ما قالـه رواة السنة عن ابن عباس وغيره أن النفـر الذين ورد ذكرهم في سورتي (الاحقاف) و (الجن) لم يجتمعوا برسول الله بـل أُوحي اليه خبرهم ، وانما أتـاه داعى الجن بعد ذلك ، فقرأ عليهم القرآن ودعـاهم الى الله عز وجـل ، كما رواه البيهقى عن ابن مسعود (رض)(٣)

وفي رواية البيهقى ايضا عن ابي هريرة (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له : أتـاني وفـد جن نصيبين فسألوني الـزاد ، فدعوت الله تعالى لهم ألاَّ يمروا بروثة ولا عظم الا وجـدوه طعاما) وقد اخرجه البخارى في صحيحه باسناد قريب منه .

وفي مسند الامـام احمد عن علقمة عن ابن مسعود (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (أتاني داعى الجن فقرأت عليهم) وفيه أنهم سألوه الزاد فقال : (كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في ايديكم أوفر مـا يكون لحما ، وكل بعـرة أو روثة علف لدوابـكم . .) وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن على بن حجر عن اسماعيل بن علية به نحـوه (٣) .

ومن أخبار ابن مسعود (رض) عن اجتماع رسول الله بالجن ما يرويـه ابن جرير وغيره من أنه صلى الله عليه وسلم انطلق به ذات ليلة (حتى اذا كنا بأعـلى مكة خطَّ لى خطـا ثم أمـرني ان اجلس فيه ثم انطلق حتى قـام ، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته . .)

والقارئ لتفسير ابـن كثير لسورة الاحقاف يواجـه العديد من الأحاديث التى ورد فيها هذا الخبر من طرق كثيرة العـدد ايضا . . مما يقطع بان اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالجن ، وتبليغه أياهم الدعـوة ، قد حصل في مرحلة تالية لاستماعهم منه دون علمـه .

هذا الى أن سورة (الرحمن) بأسرها توكيد لهـذا الواقع ، الذى يتجلى في خطاب الثقلين ، وأقامة الحجة عليهم جميعا ، بآلائه التى لا يسع أحـداً من الفريقين إنكارها . (فبأى آلاء ربكما تكذبـان ! !)

وقد روى البيهقى والترمـذى عن جابر بن عبد الله (رض) قوله :

---

٣ ـ يراجع فى ذلك تفسير ابن كثير لسورة الاحقاف

قرأ رسول الله سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : (مالى أراكم سكوتا ؟ لَلْجن كانوا احسن منكم ردا . ما قرأت عليهم هذه الآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الا قالوا : ولا بشئ من آلائك أو نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد .)

أما قوله تعالى : (الم يأتكم رسل منكم .) فهو كقوله سبحانه (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) . ومعلوم أنهما لا يخرجان الا من أحد البحرين دون الآخر ، وهى من طرائق العرب في اعطاء حكم الواحد للأكثر لعلاقة بينهما ، وانما الآية تقرير ملزم بايصال الرسالة إلى الثقلين دون تحديد لجنسية الرسول من أى الفريقين . لأن هذه الهوية قد حددت في آيات أُخر كقوله عز اسمه : (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم . .) ففي ذلك توكيد قاطع بأن الجن تابعون لرسل الانس ، وليس فيهم رسل من جنسهم وانما فيهم منذرون يبلغونهم رسالات النبيين من بنى آدم . ويستدل العلماء على ذلك من آية (الأحقاف (٢٩ ـ ٣٢) حيث نرى المستمعين القرآن من الجن ينطلقون لفورهم الى قومهم منذرين ، فيربطون بين رسالة موسى ورسالة خاتم النبيين ، ويعلنون الأخلاص من عذاب الله الا باتباع هذا الداعى الجديد ، المصدق لما سبقه من كتب الله ، والهادى الى الحق والى طريق مستقيم . وهو سياق لا يدع مجالا لاريب بان هؤلاء كانوا مؤمنين برسالة موسى (ع) ثم اقبلوا يكملون ايمانهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وبذلك يسقط كل جدل حول هذه القضية . اذ لا يبقى مناص عن الاقرار بشمول الرسالة الخاتمة للثقلين جميعا ، وبذلك ايضا ينتفى الوهم بحصر رسالته صلى الله عليه وسلم في الناس وحدهم كما فهم الاستاذ من قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) لان مساق هذا الجزء من الآية التاسعة والسبعين من سورة النساء صريح بأنه تفنيد لمغالطات المنافقين الذين لا يفقهون حقيقة الرسالة ، ويردون كل سوء يصيبهم الى اتباعهم — في الظاهر — لرسول الله ، فجاءت الآية ردّاً على تقولاتهم ، وبيانا لمهمته صلى الله عليه وسلم بأنها التبليغ عن الله ، مع تنزيهه عن كل ما ينسبه اليه اولئك الخراصون .

والبحث مع مثل المؤلف لا يقتضى الاسهاب في موضوع الجن ، وجودهم وكونهم مكلفين وملزمين باتباع الرسالات الالهية . فذلك أمر مفروغ منه بحكم

ايمانه بالكتاب والسنة ، وانما يكفى لاقناعه بالحق تذكيره بالنصوص الشاهدة له عملا بقوله تعالى : (انما كان قول المؤمنين اذا دُعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ٢٤ /٥١) وحسب المؤمن في ذلك قول ربه : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ٥١ /٥٦) ولا عبادة الا بشرع ، ولا شرع الا بوحى ، ولا وحى الا برسول . وما اخال الاستاذ حفظه الله بعامد الى الجدال في الاحاديث المتعلقة بالبحث لكونها من الآحاد ، فذلك قول لا يقف امام الحجة البينة من أعمال الصحابة في التبليغ عن رسول الله ، وفي صحيح البخارى باب خاص في اجازة خبر الواحد لا يدع مجالا لمعترض يريد وجه الله .

٣ ــ وقد بقيت ثمة هفوات صغيرة ، ولكنها على ضآلتها مشوهة لجمال الكتاب رأينا أن نختم الكلام بالاشارة اليها رجاء ان يتداركها في الطبعات التالية فيكمل له الاجر من الله ، والدعاء من عباده ان شاء الله .

ففى ص ١٤ من المقدمة . واثناء تحديده لمهمة المفكر الشريف في اطار الاصرار الصارم على قولة الحق ، يفاجئنا بهذا الكلام : (أما الصخب والكذب و . . فهى ليست من صفات من يحمل قلمه كصليب يسوع ! . .) فلا نتمالك ان نتساءل في اسى : وما شأن الصليب ويسوع في هذا المقام ! . . وكيف سمح لقلمه أن يلتقط مثل هذا التعبير الدخيل المنافي لمعتقده الاسلامى ! . .

وفي ص ١٤٠ يقول (فكل من يدعو الى القومية ، وينكر وجود الله ، هو حيوان في صورة انسان !) وأنا أستميحه عذرا للدفاع عن حقوق الحيوان، الذى أفرط في اهانته عندما وضعه على مستوى الملحد المنكر لوجود خالقه. . فكيف ؟. . وربنا يشهد للحيوان بارتفاعه عن مكانة أولئك المسوخ حين يقول : (ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ٢٥ / ٤٤) ويستمر المؤلف في تسفيه هذا الضرب الحقير من شراذم الكفر حتى يقول : (فهو جاهل غبى مخلوق خطأ . .) وأحسب الاستاذ يريد بذلك أنه مقلوب العقل مشوه الفطرة ، الا أن التعبير بكونه (مخلوقا خطأ) من الأشياء التى كنا نود أن يتنزه عنها مثل ذلك القلم المؤمن . لأن أقل ما يفهم منه نسبة الخطأ الى

الخالق في ايجاد هذا النوع من المخلوقات ومثلهُ أبعد ما يكون عن قبول هذا المضمون ، لأن خلقه تعالى هؤلاء الكفرة كخلقه الأفاعي والجرذان ، لا يخلو من حكمة تليق بجلاله سبحانه ، فلو سلمت الحياة من هذه الآفات لقُتلت حوافز البحث في الانسان ولما كان ثمة ضرورة لاقامة المخابر والمصانع ، والالآف من مظاهر المدنيات .

ولنختتم هذه الجولة بوقفة قصيرة حول كلمة صغيرة . ولكنها من حيث آثارها المجربة كبيرة .

لقد عُنيَ الاستاذ بالعبارة المشهورة (اختلاف امتي رحمة) فأقر نسبتها الى الرسول وجعل يؤكد بها يسر الاسلام ، وتقديره لحرية الفكر والعقل . وما الى ذلك (٤) . ولو هو قد رجع الى ما كتبه المحققون حولها لبحث عن نص آخر من الكتاب أو السنة يدعم به فكرته . ذلك لأن العبارة موضع (اختلاف) كثير ، ولم يثبت لها سند متصل عن رسول الله .

يقول السخاوى في (المقاصد — عن بعض رواتها : جويبر هذا ضعيف جدا ، والضحاك عن ابن عباس منقطع . ثم يقول : وعزاه الزركشى الى كتاب الحجة لنصر المقدسى مرفوعا من غير بيان لسنده ولا صحابيه ، وعزاه العراقي لآدم بن أبي اياس بدون بيان وبلفظ : (اختلاف أصحابي رحمة لأمتى) وهو مرسل ضعيف (٥) . وفي (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة) يعقب السيوطى على العبارة بقوله : هذا يدل على ان المراد اختلافهم في الاحكام . وقيل المراد اختلافهم في الحِرف والصنائع .) وهذا أقرب الى المعقول من تسويغ الاختلاف في كل شئ . لان ذلك مناف لروح الاسلام الذى يحذر المسلمين الاختلاف وحسبنا في ذلك قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ٣ / ١٠٥) وأى خير يرجى من الاختلاف بعد ان جعله الله في مقابل الرحمة اذ يقول سبحانه (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ٨١ — ١١٨و١١٩) ولعمر الحق لو ان الاستاذ استحضر في ذهنه ما يعلمه من واقع المسلمين وما يعانونه من دواهى الاختلاف ، وما أدى اليه من تفرقهم حتى في العقائد ، لم يأذن ليراعه بأثبات هذه الكلمة ، ولتذكر ان موقف

(٤) ص ١٥٦ (٥) (المقاصد الحسنة) للسخاوى ص ٢٦ و ٢٧ ط العلبى والمغنى ١٩٥٦

الاسلام من تقدير الفكر والعقل لا يعود الى الاختلاف بل الى التعاون على البـــر والتقوى ، وبذل الوسع في اصابة الحق والتزام القول السديد ، حسب توجيهات الكتاب المجيد . . ولا بأس بعد ذلك في تباين الفهـــوم ، وتفاوت القُدَر ، ففى هذا متسع للمواهب غير محدود .

وأخـــيرا . . لقد سبق أن ذيلت آخر صفحات (مجتمع الكراهية) بالكلمات التاليـــة :

« . . في هذه النفثات حقائق ووثائق ، ولكن أروع ما فيها هو صدقها وحرارتها . . فليجزك الله يا سعد عنا كل خير ، وليغفر لك هفواتك التى لم ترد بها الا الخير . . »

عاليه ــ لبنان ١٩ / ٧ / ١٣٩١ هـ

وأكـــرر في كتاب اليوم ما قلته في كتاب الأمس . . سائلا الله جل وعلا ان يهدينا لما اختلف فيه الناس من الحق باذنه ، فانه الهـــادى من يشاء الى صراط مستقيم .

المدينة المنورة ٩ / ١١ / ١٣٩٧ هـ

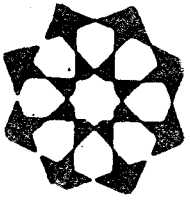

المقاومة في الشعر الأندلسي

دراسة تحليلية نقدية

لفضيلة الدكتور عبد الرحمن ياله علي

يرى بعض الكتاب أن أوربا هي أول من عرف أدب المقاومة ، وذلك حين وقعت في قبضة النازية ، فكان الأدب أحد العناصر القتالية التي قاومتها ، وشنت عليها حربا شعواء، فقد بدأ الأدب يكشف مخازيها وأهدارها لكرامة الإنسان ، فعبأ النفوس واشعل جذوة الحماس ، ودعا للقتال ، ونادى لمقاومتها حتى يتقلص ظلها وتذهب ريحها ، فتسلم البشرية من بالغ ضررها وعظيم خطرها

هذه النظرة إن خلت من التعصب فهي قطعا لا تخلو من القصور ، ذلك أن الأدب العربي قد سبق الأوربي إلى ميدان المقاومة ، فهو حتى في جاهليته لم يكن بمعزل عن وجدان الأمة منصرفا عن احتياجاتها مقصراً في الذود عن قيمها . بل كان فكرها المدبر ولسانها المعبر يحدو مسيرتها ، ويعبئ قواها ، ويثير حماسها خاصة في الأوقات التي تتعرض فيها للهزائم العسكرية والهزات النفسية .

ونحن نعرف أن القبيلة في الجاهلية كانت تقيم الحفلات وتدق الطبول ابتهاجا بنبوغ شاعر ،لأنه سيكون الناشر لأمجادها الذائد عن حياضها . وكان الشاعر إذا مدح قبيلة رفعها مكانا عليا رغم دنو منزلتها وحقارة شأنها ، وإذا هجا أخرى حط من قدرها وإن كان ذاهباً في أجواء السماء . ومرجع هذا طبيعة الكلمة العربية ذات الخاصية المتفردة ، فهي إذا ما صيغ منها شعر موزون أو نثر مسجوع فعلت

في النفوس فعل السيف في الأبدان فلا غرو إن شبهوا اللسان بالسيف . قال سويد بن أبي كاهل اليشكرى :

ولسانا صيرفيا صارمـــا كحسام السيف ما مس قطع (١)

ولما جاء الإسلام بما خالف عليه العرب في حياتهم الدينية والاجتماعية ، وجد الشعر نفسه أمام معركة لم يلبث أن حدد فيها دوره ، وأخذ مكانه ، وأعلن التزامه ، فكان أحد الأدوات الحربية والوسائل النضالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض حسان بن ثابت على قول الشعر رداً على المشركين ، وكان يخبره أن شعره أشد عليهم من وقع النبال ، ويدعوله : اللهم أيده بروح القدس (٢)

وظل الشعر يواكب مسيرة الأمة في عصورها المختلفة ، يتغنى بنصرها ، ويستعرض مواقف المجد والبطولة في تاريخها ، ويستنهض هممها ، ويحرك مشاعرها وينعى عليها تخاذلها وقعودها عن جهاد العدو المتربص بها الطامع في أرضها . . وهكذا مضى هذا التيار الهـــادر حتى وصل مداه وبلغ زباه في الأندلس .

ونعنى به هنا الشعر الذى أنشئ أيام الحرب الاسلامية المسيحية التى دارت رحاها في جزيرة الأندلس ، وكما عرفنا آنفا بأن الأدب العربي حتى في جاهليته لم يخل من شعر المقاومة إلاّ أنه لم يكن بالتوسع والعمق اللذين نجدهما في الأدب الاندلسى، ولعله مما أكسبه ذلك طبيعة الأحداث التى جرت في منطقته ، إذ أن الأمة الإسلامية لم تعرف في تاريخها الطويل نكبة كتلك التى وقعت في أندلسها ، ورغم ما وقع في مشرقها من حروب التتر والمغـــول والصليبيين إلاّ أنها استطاعت أن تنتصر على هؤلاء جميعا ، وأن تخرج من تلك النكبات وهى أقوى عوداً وأمضى عزما وأشد مراساً بينما لم تستطع ذلك في الأندلس ، فقد تقلص هناك ظلها ، وطويت رايتها ، وافلت شمس وجودها ، فلا عجب إن كان الشعر الأندلسى أكثر بكاء وأحر ندبا وأشد حرقة وأعلى صوتاً وأعمق أثراً في استنهاض الهمم وتحريك المشاعر حتى شعرهم الرثائي لم يكن خلواً من المضامين النضالية والصرخات الإنذارية والإشراقات الوطنية ، فقد كانوا طوال فترة الحرب يعبئون الجهود ، ويشحذون العزائم ، وهم يرثون المدن الضائعة ويبكون جمالها الذاهب ، وقد فطن بعض الكتاب لهذا الملحظ فقال : « . . ولم تسقط مدينة في يد مسيحى الشمال إلاّ بكوها ، وتفجعوا

١ ـ المفضليات ، ط ٣ القاهرة ، ٢٠١

٢ ـ عمدة القارى شرح صـــحيح البخارى للبدر العينى ط بيروت ، ٤/٢١٧

عليها تفجعاً حاراً ، وهو تفجع كانوا يضمنونه استصراخاً للمسلمين في مغارب الأرض ومشارقها لعلهم يستنقذون تلك المدن من براثن الأسبان ، ويستعيدونها إلى حظيرة الإسلام قبل أن تدك هناك كل صروحه ، وتسقط كل راياته وأعلامه .(١)

وقد توسع مدلول المقاومة عندهم فشمل الدعوة إلى الثورة على الملوك الذين خضعوا لملوك النصارى ، واستعانوا بهم على إخوانهم في العقيدة والوطن ، كما شمل محاربة المنكرات الفاشية والمفاسد البادية بحسبانها سبب الضعف والهلاك ، وشمل كذلك الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ومقاومة العدو المغير ، كما شمل أيضاً البحث عن قيادة رشيدة تجمع شمل الأمة ، وتمضى بها في عزم وثبات ، ولا ننسى القصيدة المادحة التى مجدت الأبطال ، وتغنت بانتصاراتهم وقد استعانت في نقل التجربة وتكثيف العاطفة بالمعنى الحى والكلمة المؤثرة والصورة المعبرة التى تستلفت النظر ، وتستوقف العجل ، وتستنفر القاعد ، وتجعل المرء يخوض غمار الحرب بصدر رحب وجنان جرئ وعزم قوى . هذا ، وقد ارتفع صوت هذا الشعر حتى جاوز حدود الأندلس الجغرافية فشرّق وغرّب مستنجداً مستنهضاً .

ونحب أن نقف عند بعض ضروب المقاومة التى ألمحنا إليها آنفاً ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، إذ أن تتبع جزيئاتها والإلمام بها يحتاج إلى جهد متصل وبحث منفصل قد لا تتسع له مجلة تعالج أكثر من موضوع .

من ذلك ما قاله خلف بن فرج الألبيرى في حكام غرناطة :

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذى أحدثتمو
أسلمتم الاسلام فى	أسر العدا وقعدتمو
وجب القيام عليكمو	إذ بالنصارى قمتمو
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبيّ شققتمو(١)

فالشاعر هنا يعلنها ثورة على هؤلاء الحكام الذين فرطوا في الدفاع عن الإسلام وخذلوه حين أسلموه للأعداء برضوخهم لهم ، فتخلوا عن قيمه ، وقعدوا عن حمايته ، وقد مضوا في هذا الطريق الخطر إلى غاية ، ما بعدها إلا العثور وذلك حين استعانوا بالنصارى بعضهم على بعض في عراكهم الذى هو في غير معترك ، ومن أجل ذلك وجب مقاومتهم وشق العصا عليهم ، لأن طاعتهم والتسليم لهم

١ ـ شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط ٦ القاهرة ، ٤٣٤

١ ـ انظر ، تاريخ الفكر الاندلسى، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ م ، ١١٣

سيقود حتما إلى نهاية أليمة وعاقبة مخزية وخيمة . والشاعر هنا يبرر الخروج على الملوك بأنهم أحدثوا في الإسلام حدثاً ، وأنهم سلموه للأعداء ، وقعدوا عن نصرته ، وأنهم ما لأوا الكفار وواطؤهم على النيل منه ، وأنهم عصوا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهذه كلها براهين يسوقها لتأييد قضيته وتدعيم دعوته ووجاهة فكرته .

وقد تناول الشعر المنكرات ، فشدد النكير على مرتكبيها مبيناً مضارها وخطورة انتشارها ، فقال أحد الشعراء عند سقوط طليطلة ، في يد الأسبان عام ٤٧٨ هـ :

فإن قلنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النكير
فإنا مثلهم وأشد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام ... وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار ... إليه فيسهل الأمر العسير
ولكن جرأة في عقر دار ... كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذا ما ... على العصيان أرخيت الستور (١)

إن نكبة طليطلة لم تأت ضربة لازب ، وإنما تقدمتها أسباب مهدت لها ، وساقت إليها ، من تلك الأسباب ما ذكره الشاعر في أبياته المتقدمة ، وكما هو واضح فإن ما ذكره لم يكن قاصراً على طليطلة منتشرا بين أهلها وحدهم وإنما هو عام في كثير من الأقاليم والمدن ، ولو أن المسلمين هناك وعوا الدرس لعادت نكبة طليطلة ربحاً لبقية مدن الأندلس ، ولكنهم استمرأوا ارتكاب المنكرات من فسق وفجور وأكل للحرام من غير اضطرار ، ومن تجرؤ على حدود الله وارتكاب للمعاصى في السر والعلن ، فلاعجب إن عمت مصيبتهم ونزلت من سماء الأندلس رايتهم

ولا شك أن مقاومة هذه الأمراض الاجتماعية التى تفتك بالأمة أمر تحتمه المحافظة على جسم الأمة صحيحا وروحها قويا وعزمها صلباً حديدا ، فذلك أدعى لصمودها أمام من عاداها وردّ سهام من رماها .

وكان الشعر يدعو إلى الجهاد ، ويرغب فيه ذاكراً ما أعد للمجاهدين من أجر عظيم ومثيراً الحفائظ بأبلغ ما تستثار به من حماية الدين وتدعيم لأركانه ، وتمهيد لنشره بين الناس . من ذلك ما قاله ابراهيم بن خلف المتوفي سنة ٦٤٩ هـ .

---

١ ـ احمد المقرى ، نفح الطيب ،القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ٢/٥٩٢

ورداً فمضمون نجاح المصدر ... هي عزة الدنيا وفوز المحشر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن كابر
إن الإله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنيكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل لدن اسمر
ولكم عزائم لو ركبتم بعضها ... أغنتكم عن كل طرف مضمر
الكفر ممتد المطامع والهدى ... مستمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضمر في المرابط غيرة ... ألاَّ تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكروا من معلم كم دمروا ... من معشر كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا ... من حلية التوحيد صهوة منبر
أين الحفائظ ما لها لم تنبعث ... أين العزائم ما لها لا تنبرى
أيهزُّ منكم فارس في كفه ... سيفاً ودينَ محمد لم ينصر (١)

فالشاعر هنا يأمرهم بورود حوض المنايا جهاداً في سبيل الله ضامناً لهم نجاح المصدر فهو : إما نصر وسيادة وإما قتل وشهادة ، ثم يذكرهم بأنهم أهل الحمية الاسلامية والنخوة العربية التي هي إرث موروث لهم أبا عن جد مستنهضا بذلك ما همد من عزائمهم ومشعلاً ما خمد من رجولتهم ، مذكرا لهم بأنهم قد باعوا أنفسهم واموالهم لله تعالى مشيراً بذلك إلى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفي بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . . » الآية (٢)

وهو هنا يشتار من رياض القرآن ، ويعتصر رحيق الآيات ، ليأخذ من جماله زينة لأسلوبه ومن قوته دعماً لمعانيه ، فما دام الأمر كذلك فليس هناك أحد أحق بدعم هذا الدين منكم أنتم الذين بعتم انفسكم وأموالكم في سبيله لقاء الجنة ، ثم أنتم الذين شيدتم أركانه ، وأعليتم بنيانه ، ومهدتم طريق نشره بين العالمين ، ومما يعينكم على ذلك عزائمكم الماضية التي لو ركبتم بعضها لأغنتكم عن الخيول الضامرة ، فلم هذا التقاعس والكفر مرفوع الراية ممتد الرواق مسنود الجانب طمعاً في القضاء

١ ـ الرسالة ، مجلة ، مد ١٠٥ ٨ يوليو ١٩٣٥ م ، السنة الثالثة .
٢ التوبة ١١١

على الإسلام بينما « الهدى مستمسك بذناب عيش أغبر » وهذا التعبير كناية عما يعانيه الاسلام الذى هو دين الهدى من اضطهاد وخذلان وانكسار جناح ، ثم يبالغ في استثارتهم فيقول إن هذا الأمر قد استفز حتى العجماوات ، فها هى الخيل تتحرق شوقا وتتحرك ضجراً في مرابطها الاّ تجد سبيلاً إلى ميدان الوغى لمقاتلة الرهط الكفار الذين أبطلوا سنن النبى محمد صلي الله عليه وسلم ، وعطلوا المنابر من دعوة التوحيد ونكروا المعالم وغيروا المشاعر ، وقتلوا المسلمين ، لعله بذلك يبعث عزائمهم ، ويثير حفائظهم ، ويدفع إلى الجهاد كتائبهم ، ثم يخاطبهم في لهجة استنكارية ونغمة توبيخية فيقول :

أيهزُّ منكم فارس في كفــه سيفاً وديــن محمد لم ينصر

ولئن سلكت هذه الكلمة مسلك الشدة في الخطاب والعنف في العتاب فان الكلمة الآتية قد نهجت نهجاً تميز بالهدوء والرقة إلاّ أن قسوتها في رقتها ، وعنفها في هدوئها ، وأعنى بها تلك القصيدة التى أرسلها لسان الدين بن الخطيب المتوفي سنة ٧٧٦ هـ إلى أهل المغرب في الاستنفار للجهاد وإغاثة الأندلس والتى يقول فيها :

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا
وإذا بلغ المــاء الزبا فتداركوا فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان اندلس العــدا فلهفا على الإسلام ما بينهم لهفا
وقد مزجت افواهها بدمائها فان ظمئت لارىً الاّ الردى صرفا
أنوماً وإغفاء على سنة الكرى وما نام طرف في حماها ولا أغفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب فلا وزراً عنهم وحداً ولا لهفا
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكا اقام عليها الكفر يرشفها رشفا (١)

فهو يبدأ قصيدته بكلمة « إخواننا » لإثارة الحمية والعطف في نفوس المخاطبين إدراكا للإسلام الذى كاد الكفر يطفئ نوره وقد بلغ الأمر مبلغه من الشدة والحرج ولم يعد ممكن الاحتمال ، وها هو الدين يبسط لكم كفه مستنجداً بعد أن مدّ الأعداء أياديهم إلى راياته ، وبسطوا سطوتهم على أهله ، وعاثوا في الأندلس فسادا ، وأذاقوا أهلها ذلاً واضطهادا ، فمن ظمئ منهم لا يجد إلاّ كأس المنية مشربا ، فلِمَ

١ ـ نهـــاية الاندلس ، محمدعبد الله عنان ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ١٩٠

النوم والإغفاء وبلاد الإسلام لم ينم لها طرف ولا غفا لها جفن وها هم الأعداء قد أحاطوا بها من كل جانب ولا معين ولا نصير .

وفي البيت الأخير يشير إلى ما عليه ثغور الإسلام من رونق وجمال ، وكأنها بذلك تطمع الأعداء فيها ، وتغريهم بالهجوم عليها ، ولما شبهها بالثغور رشح ذلك أن يقول :

أقام عليها الكفر يرشفها رشفا

ثم بين الصلة التي تجمعهم والحبل الذي يربطهم والعروة التي يعتصمون بها فقال :

وسيلتنا الاسلام وهو أخـــوة ... من الملأ الأعلى تقربنا زلفى
أخوفاً وقد لذنا بجاه من ارتضى ... وذلاً وقد عذنا بعز من استعفى
فهل ناصر مستبصر في يقينه ... يجير من استعدى ويكفي من استكفى
وهل بائـــع فينا من الله نفسه ... فلا مشتر أولى من الله أو أوفي
أفي الله شك بعد ما وضح الهدى ... وكيف لضوء الصبح في الافق أن يخفى
وكيف يعيش الكفر فينا ودوننا ... قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
غيوث نوال كلما سئلوا الندى ... ليوث نزال كلما حضروا الزحفا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفى ... وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفى (١)

فالاسلام هو الدين الذي يجمع بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وتباعد أقطارهم ويجعل منهم إخوة يأسى بعضهم لجراح بعض ، ويسمو بأرواحهم إلى الملأ الأعلى ، ويكونّ . منهم وبهم قوة تهوى على رأس العدو وتحطمه ، فهم على الله متوكلون وبنصره واثقون ، فلمَ الخوف وهم أقوياء ، ولم الذل وهم أعزاء ، ولِمَ التهيب وركنهم شديد .

ثم يلتفت فيسأل في لهفة وشوق عن رجل قوي اليقين واثق من نصر ربه ليكون غياثا لهؤلاء الضعفاء ، فيرد الطمأنينة إلى قلوبهم وسهام الأعداء إلى نحورهم ثم يعتب عليهم بأنهم قبائل لا يحصيها العدد ، ولا يعوزها المدد والكفر ممتد رواقه ظاهر في الأرض عيثه وإفساده ، فليهبوا للجهاد بأموالهم فهم غيوث هاطلة ، وبانفسهم فهم ليوث ضارية ، فقد أظلهم زمانه ، وحل بينهم إبانه .

ومما يدخل في شعر المقاومة المديح الذي مجد البطولة ، وأثنى على الأبطال ، وألهب

١ — نفســه .

المشاعر الوطنية ، وأضرم القلوب والصدور غيرة وحماسا ، ونظر بعين الأمل والرجاء لعله يرى تباشير النصر تلوح من قريب . من ذلك ما قاله أبو جعفر المرقشي من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن على صاحب مراكش عندما دخل الأندلس ، وأخذ يسترجع كثيرا مما أخذه النصارى من المدن مطلعها :

أبت غير ماء للنخيل ورودا وهامت به عذب الحمام وروداً

يقـــول :

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى فابصر شمل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو ابو يعقوب في شنث يافث يعيد عميد الكافرين عميدا
ويلقى على إفرنجهم عبء ككل فيتركهم فوق الصعيد هجودا
يغادرهم جرحى وقتلى مبرحاً ركوعاعلى وجه الفلا وسجودا (١)

فهو هنا يتطلع مشتشرفاً إلى اليوم الذى يرى فيه شمل الكفار مبددا ، وقد انتصر عليهم المسلمون بعد أن الحموهم سيوف الحق ، وجرعوهم كئوس الموت ، ومضى ابو يعقوب فغزاهم في عقر دارهم ومكان عبادتهم . . . . في شنث يافث وهى كنيسة عظيمة في ثغور ماردة لها عند النصارى قداسة دينية عظيمة لأسباب ذكرها الحميرى في كتابه : صفحة جزيرة الأندلس صفحة ١١٥ ، وهناك القى عليهم بثقله ، ورماهم بجنده ، وأسر عميدهم فغادرهم ما بين قتيل وجريح وساجد على وجه الأرض . وهذا تعبير رائع يعج بالحركة ، ويرسم صورة حية لما يتمنى أن تنتهى إليه هزيمة الكفار ، فهو أشبه ما يكون بمهندس بارع يرسم خريطة منزل علي صفحة الورقة ثم يطلب من العمال تنفيذها على صفحة الأرض .

وينعى شعر المقاومة على الناس تركهم أوطانهم ونزوحهم إلى غيرها هروباً من المدافعة والتماساً للنجاة ، فيقول أبو المطرف بن عميرة المتوفي سنة ٦٥٨ هـ :

كفى حزناً أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر
وان كلينا من مشوق وشائـــق بنار اغتراب في حشاه تسعر
ألا ليت شعرى والأماني ضلة وقول ألا ليت شعرى تحير

١ ـ نفح الطيب ٢/٥٨٨

هل النهر عقد للحزيرة مثلما ... عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهر
وهـــل للصبا ذيل عليه يجره ... فيزور عنه موجه المتكسر
وتلك المغاني هل عليها طلاوة ... بما راق منها أو بمارق تسحر
ملاعب أفراس الصبابة والصبا ... نروح إليها تارة ونبكر
وقبل ذاك النهر كانت معاهد ... بها العيش مطلول الخميلة اخضر (١)

في هذه الأبيات نجد نهجا جديداً في المقاومة . . نهجا يعتمد على الإقناع المنطقى والروح الإنساني ، ويعدل عن اللهجة الحادة التى نجدها في قصيدة المرقشى السابقة والتى دعا فيها إلى حصد الأعداء وسحقهم واتخاذ بساط من أشلائهم إلى غير ذلك . أما أبو المطرف فقد عدل عن كل ذلك إلى القول الهادى والأسلوب المقنع حين ذكر أن هذه الأرض ذات الأنهار الجارية والخمائل المخضرة والمغاني الساحرة والهواء النقى هى ملاعب صبانا ومراتع لهونا ومنابت رزقنا ، وهى من أجل ذلك واجب علينا البقاء فيها والدفاع عنها ، وبهذه الجمل الهادئات الهامسات ينجح الشاعر في اقناع هؤلاء الفارين النازحين بالبقاء في ديارهم والعيش على أرضهم ودفع العدو المغير حتى لا تثبت أقدامه فيها ، وتمتد يده إلى ما سواها .

ونحن نعلم أنه عندما سقطت طليطلة في يد الأسبان ظهرت دعوة تنادى إلى شد الرحال والهجرة إلى خارج الأندلس من ذلك ما قاله ابن العسال :

حثوا رحالكم يا أهل أندلس ... فما المقام بهـــا إلاَّ من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط (٢)

وقد تصدى الشعر لهذه الدعوة فحاربها ، وبين سوء عاقبتها وعظيم مخاطرها من ذلك هذه الأبيات الرائية التى استغل الشاعر فيها العاطفة الوطنية وما زال يبدئ فيها ويعيد ، ويعزف على هذا الوتر الحساس تكثيفاً للعاطفة وإثارة للحمية حتى يقنع هؤلاء النازحين بالرجوع إلى ديارهم والبقاء فيها ، فذلك أحفظ لكرامتهم ، وأحمى لحوزتهم .

ومن شعر المقاومة الشعر الذى تطلع إلى قائد ينهض بالأمة من كبوتها ، ويخلصها

---

١ ـ نفح الطيب ، ٢/٥٩٨ ٢ ـ نفح الطيب ، ٢/٥٢٣

من محنتها ، ويدفع عنها وبها كيد عدوها . يقول بعضهم :

ألاَ رجل له رأى أصيل ... به ممـــا نحاذر نستجير
يكر إذا السيوف تناولته ... وأين بنا إذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناس طراً ... بأندلس قتيـــل أو اسير
اذكر بالقراع الليث حرصاً ... على أن يقرع البيض الذكور
يبادر خرقها قبل اتساع ... لخطب منه تنخسف البدور
يوسع للذى يلقاه صدراً ... إذا ضاقت بما تلقى الصدور (١)

فهو هنا يستشرف إلى رجل عبقرى في تفكيره حازم في رأيه وتدبيره قوية عزيمته مشدودة شكيمته ، لا يرام ما وراء ظهره ، صبور في ميدان القتال ، لا يستسلم مهما عظمت الخطوب وكثرت العقبات وأظلمت الدروب بل يقتحمها بفكر نير وعزم قوى وسيف مسلول ذوداً عن حرمات الأمة وحماية لظهرها ، وأنه إذا رأى خرقاً بادر بسده وإذا أبصر خطراً سارع برده توحيداً للكلمة وصوناً لها من الفرقة والانقسام ، ويزين كل هذه الخلال سعة صدر يلقى بها الأمور الخطيرة إذا ضاقت بها الصدور .

إن الناظر في واقع الحكام المسلمين يومذاك يجدهم قد انشغلوا بملذاتهم عن الدفاع عن الاسلام وأهله ودياره ، كما أن المعارك فيما بينهم قد استوعبت جهدهم واستقطبت طاقتهم ، ومن ثمَّ فإن الشاعر قد يئس منهم ، وانصرف عنهم ، واصبح كأنه يصيح في عالم المجهول بحثا عن قائد زكى التفكير حكيم التدبير تجد فيه الأمة ضالتها المفقودة وأمنيتها المنشودة ، يوحد صفها ، ويجمع كلمتها ، ويتجه بها إلى ميدان المعركة ، ويواجه بها أعداءها صابراً محتسبا ، لا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً ، ولا ترى في أعماله من الرياء فتيلا .

ومما يدخل في هذا الباب الشعر الذى تحدث عما حل بالمساجد من تحويلها إلى كنائس وارتفاع صوت النواقيس بداخلها بدل الأذان وتعطيل الصلوات فيها وتلويثها بعقيدة الشرك وأكل الخنزير وشرب الخمر وما أصاب السكان من تقتيل

١ ـ نفسه ٢/٥٩٤

وتشريد للرجال وسبي النساء وامتهان لعفتهن،وفي هذا يقول عمرو بن المرابط :

كم من جامع فيها أعيد كنيسة ... فاهلك عليه أسى فلا تتجلد
القس والناقوس فوق منـــاره ... والخمر والخنزير وسط المسجد
اسفى عليها اقفرت صلواتهـــا ... من قانتين وراكعين وسجد
وتعوضت منهم بكل معانـــد ... مستكبر مذ كان لم يتشهد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولـــة ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ودّ من ... ولداه وداً أنه لم يولـــد
كم من تقيٍ في السلاسل موثق ... يبكى لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعـــه الردى ... ما بين حـــد ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... ورقّ لهم من قلبه كالجلمد

ثم يقول :

أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر لـــم تتقلد
يا حسرة لحمية الاسلام قـــد ... خمدت وكانت قبل ذات توقد

فشعر كهذا مثير للحفائظ محرك للمشاعر ، فقد استعمل فيه الشاعر القلم والريشة فجاءت صوره واضحة المعالم تستلفت النظر ، وتستوقف العجل ثم يبالغ في استثارة المشاعر الدينية والعواطف الإنسانية ، فيذكر ما حل بالمساجد التى حولت إلى كنائس والمآذن التى تعطل الاذان فيها ، وارتفع من فوقها صوت الناقوس والمحاريب التى خلت من الركع السجود ، وعمرت بكل معاند متكبر لا ينطق بشهادة التوحيد .

وقد كان للنصارى تقاليد معينة في تحويل المساجد إلى كنائس ، فما إن يفتحوا بلداً، وتتم لهم السيطرة عليه حتى ينتظموا في موكب فخم يتقدمه الكهنة وفرسان الجماعات الدينية ، ويتجهوا صوب المسجد ، وهم ينشدون أناشيد الحمد والثناء ثم يتم تحويله إلى كنيسة ، ويرفع فوق ساريتها علم النصر . (١)

ومن ابشع ما ارتكبه النصارى انتهاك الحرمات وامتهان الكرامة الإنسانية والاعتداء على عفة النساء ، فكم من أسير وأسيرة امتهنت كرامتها ، ولم يجدا إلى الفداء

---

١ – يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ٤٣٣

سبيلا ، وكم من امرأة مصونة اعتدى على عفتها حتى تمنت لو أنها في قبر ، وكم من طفل حيل بينه وبين والديه حتى تمنيا أنه لم يولد ، وكم من تقى عابد كبل بالسلاسل ، وكم من شهيد قطعته السيوف أربا أربا . . إنها حال بلغت من القسوة النهاية ، وتجاوزت في سوئها الغاية حتى لقد ضج أهل الملأ الأعلى وانفطر منها قلب الجليد ، واهتز لها وقار الحليم ، ولا شك أن ذلك من أبلغ ما يستثار به غيور ، أو تستنهض به همة ، او يدعى به إلى نجدة .

وقد استعان الشاعر في تعبيره للوصول الى هدفه باثارة العواطف الدينية والاسرية وبالإلحاح على صور المأساة وأوضاعها مما كثف آثارها فجعلها تسيطر على نفوسنا ، وتهيمن على حسنا ، وتنفخ في جمرة الحمية .

وقد استغل الشاعر ما وصلت إليه النفوس من حماس وغليان فقال :

أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلـــد

يا حسرة لحمية الإسلام قـــد ... خمدت وكانت قبل ذات توقد

ولكن هذه الصيحات ذهبت جميعها أدراج الرياح ، ونفذ أمر الله ، وخرج المسلمون من الأندلس بعد ثمانية القرون التى كانت حجر الزاوية في بناء الحضارة الأوربية الحديثة . . خرجوا وقد تركوا تراثاً ثقافيا ضخماً على صفحات الكتب وآثاراً عمرانية رائعة على صفحة الأرض تشاهد الآن وكأنها نوادب تبكى قوماً رحلوا ، وتتطلع في لهفة إلى عودتهم .

متى يُفيقُ الغافِلون!

شعر فضيلة الشيخ محمد المجذوب
الجامعة الإسلامية

كانتْ هدايا الحجِ تمرُه ... فغدت بفضلِ الجهلِ جمرُه
تُلقاً لمالِ المسلمينَ ... على التوافهِ والمضرَّه
أنَّى التفتَّ ترى لبها ... ريجَ مالئاتٍ كلَّ ثغرَه
الدربَ والأرضَ البرا ... حَ وكلَّ زاويةٍ وحُفرَه
والكلُ مشغولٌ بـ (هَا ... تِ وخُذْ وكمْ) عن كلِ فكرَه
فُتِنوا بتلكَ المغريا ... تِ عنِ العبادةِ والمبرَّه
وتدافعوا يتأبَّطو ... ن من الزخارفِ كلَّ صرَّه
وأُولو النُّهى من هذه الـ ... أحداثِ في حُرَقٍ وحسرَه
كشفوا بحكمتِهم عنِ الـ ... سرِّ الخفيِّ الضخمِ سترَه
فإذا كنوزُ المسلمي ... نَ تُصبُّ في سَرَفٍ وشرَّه
تُشرى بها سلعُ العدو ... لكي يُحقِّقَ ما أسرَّه
كلُّ اللبابِ له وللـ ... تُّجارِ من جَدواه قِشرَه
فجهودُ هاتيكَ الجمو ... عِ ومالُهُمْ لهواهُ سُخرَه
وعليهمُو أن يَصْنَعوا ... من عُسْرِهم لِلغربِ يُسرَه

وبحسبهم أن يظفروا ... من كل ذاك ببعض قطره

فكأنهم لا يحسنو ... ن سوى الذي هو قد أقرّه

وكأنهم لم يعرفوا ... يوماً جرائمه وكفره

ولتستحل أموالهم ... بيديه أسلحةً وقدره

فيها يدلّ وجودهم ... وبها يعدّ لكل غدره

ولو انهم فطنوا لما ... أمنوا على الأيام مكره

ولقاطعوا أسواقه ... حتى يطأطئ وهو مكره

واذن لعادوا من وفا ... دتهم بمنفرة وعبره

ولحقّ فيهم أن يقا ... ل : ليهنكم حجٌّ وعمره

والحجّ زادٌ من تقى الـ ... ـرحمن لا زهوٌ وبشره

فمتى يفيق الغافلو ... ن وينفض المخمور سكره

فلقد يلام الحبّ مرّه ... وأخو العباوة ألف مرّه

صيغة فعلان واستعمالاتها في اللغة العربية

لفضيلة الدكتور مصطفى أحمد النماس
الاستاذ المساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

المتتبع لصيغة (فعلان) بفتح الأول وسكون الثاني ، أو بضم الأول أو كسره في اللغة العربية يجد أنها من الصيغ العملية التى يدور استعمالها في كثير من أبواب النحو والصرف وقد آثرت البحث في هذه الصيغة كى أجمع حبات العقد المنفرط هنا وهناك وما يستتبع الأحكام الخاصة بما ورد على هذا الوزن تبعا لنوعية استعماله عند العرب فأقول وبالله التوفيق .

صيغة (فَعْلان) (١) الملحوظ فيها أنها ختمت بألف ونون زائدتين ، وهذه الزيادة مطردة في كل صفة مؤنثها على وزن (فَعْلَى) لأن الصفات تشبه الأفعال والفعل أقعد في باب الزيادة واذا وجدنا بعض الأعلام وأسماء الأجناس على صيغة (فَعْلان) فهى بالحمل على الصفات فابن يعيش يقول في شرح المفصل (٢) (فالاول وقوعها (أى النون) آخرا بعد ألف زائدة نحو سكران وعطشان ومروان وقحطان وأصل هذه النون أن تلحق الصفات مما مؤنثه (فعلى) لأن الصفات بالزيادة أولى لشبهها بالأفعال والأفعال أقعد في باب الزيادة من الأسماء لتصرفها ، والأعلام من نحو : مروان وقحطان محمولة عليها في ذلك وقد كثرت الزيادة آخرا على هذا

---

١ – وزيادة الألف والنون اخرالاسم ودلالتها على النسب تعد من الظواهر التى تشارك فيها بعض اللغات الشرقية والغربية .

٢ – شرح المفصل ج ٩ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

الحد ولا يحمل شئ منه على الأصل إلا بدليل . (١)

صيغة فعلان ومعانيها :

وردت صيغة (فَعْلان) متعددة المعاني والدلالة وهاك أنواعها :

١ ــ فَعْلان المصدر :

قال في اللسان قال أبو الهيثم لم يجئ من المصادر على فعلان (بفتح فسكون) الا « لَيّان » وقال ابن الحاجب (٢) : وأما فعلان فنادر نحو لوى لَيّانا (٣) وقد ذكره أبو زيد بكسر اللام ، وجاء أيضا شنآن وقرئ في التنزيل بهما . وجاء في القاموس (٤) الزيدان بمعنى الزيادة فتكون فعلان جاءت مصدرا نادرا في ثلاثة معان . . . .

قال ذو الرمة :

تُطيلَن ليّاني وأنتِ مليئةٌ ... وأُحْسنُ يا ذاتَ الوشاحِ التقاضيا

وقال زيادة العنبرى : (٥)

قد كنت داينت بها حَسّانَا ... مخافة الإفلاس والليّانَا

وأصل لَيّان لَوْيان اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء الخ فهو قليل في المصادر وكثير في الصفات .

---

١ ــ ومن الملحوظ أننا نشاهداستعمال هذا الوزن كثيرا فى اللهجةالدارجة فقالوا فلان بخلان ، بردان ، بطران بهتان ، جربان ، جحدان حلمان ، خدران ، زعلان ، زهقان ،زوران ، سرحان ، طرشان ، شرقان ، صفقان ، عميان ، فجعان ، كحيان ،عمشان ، مرضان ، شقيان .. الخ .

٢ ــ انظر الشافية ج ١ ص ١٥٩وشرح المفصل ج ٦ ص ٤٥ .

٣ ــ تقول : نواه دينه ، ولواهبدينه اذا مطله .

٤ ــ انظر القاموس مادة (الزيد) .

٥ ــ البيت لزيادة العنبرى ونسبوهفى كتاب سيبويه ج ١ ص ٩٧ الىرؤبة بن العجاج

٢ ـ فَعْلان العلم (١)

وردت صيغة فَعْلان علما للإنسان وغيره نحو : بدران ، سعدان ، ومروان ، ورغدان (اسم قصر بالأردن) وشعبان علم على الشهر المعروف كما وردت اسماً للجنس مثل سعدان نبت من أفضل المراعى كما يقول القاموس ومنه قولهم في المثل : (مرعى ولا كالسَّعدان) وقد اتفق العلم واسم الجنس .

٣ ـ فعلان الصفة :

تستعمل صيغة فعلان صفة مشبهة من الفعل اللازم المكسور العين قياسا بشرط أن يدل على الامتلاء كسكران وريان (٢) والشبع كشبعان والخلو مثل غرثان (للجائع) وصديان وحرارة البطن كغضبان وثكلان وحران قال عروة بن حزام :

لَئن كان بردُ الماء حرّانَ صاديا إليَّ حبيبا إنَّها لحبيبُ

والمؤنث لفَعْلان يكون صفة ممتنعة من التاء بأن يكون المؤنث على فَعْلى مثل جوعان ، وسكران وهذا هو المطرد الغالب وقد يخرج عن هذا الاصل وعده علماء اللغة شاذا كقولهم نعس(٣) بالفتح فهو نعسان ومثله جوعان من جاع وقد يكون صفة لا تمتنع من التاء مثل سفيان للطويل ومؤنثه سفيانة وقد حصر ابن مالك الألفاظ التى مؤنثها بالتاء ومذكرها على صيغة فَعْلان وهى كما نظمها في كتابه الفرائد في قوله :ـ

---

١ ـ كثير من الاوصاف قد استعمله اسلافنا اعلاما ومنه ما يستعمل حتى الان مثل حسان بن ثابت شاعر النبى وحمدان (بنو حمدان) ومنهم سيف الدولة الحمدانى وحيـــان ومنهم ابوحيان التوحيدى البغدادى ، وابو حيان الاندلسى النحوى وسحبان الخطيب المشهور يضرب المثل بفصاحته ، شعبان وشرهان ، وعدنان عفان ، غسان غيلان (أسم الشاعر ذو الرمة) قحطـــان وكهلان وهمدان (قبائل عربية) وردان (مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه) يقظان (حى بن يقظان) ومن الكنايات عن مجهول النسب (هيان بن بيان) .

* كذلك صفوان وصفا لمن ينفق ماله رياء فى قوله تعالى (كمثل صفوان عليه تراب) .

فصـــفوان فى الاصل حجر وقد يستعمل علما مثل خالد بن صفوان .

٢ ـ قال سيبويه ج ٢ ص ٢٢١ :(وقالوا قدح نصفان وجمجمة نصفى ، وقدح قربان وجمجمة قربى اذا قارب الامتلاء جعلوا ذلك بمنزلة الملآن ، لان ذلك معناه معنى الامتلاء لان النصف قد امتلأ والقربان ممتلىء ايضا الى حيث بلغ ولم نسمعهم قالوا : قرب ولا نصف اكتفوا بقارب وناصـــف ولكنهم جاءوا به كأنهم يقولون قرب ونصف كما قالوا مذاكير ولم يقولوا : مذكير ولا مذكار انتهى كلام سيبويه .

٣ ـ انظر القاموس مادة (نعس)

كل ما جاء على (فَعْلان) فمؤنثه على (فَعْلى) غير اثنى عشر اسما فإنها جاءت على (فعلانة) ثم نظمها فقال : ـ

أجز فَعْلى لفَعْلانا اذا استثنيت حَبْلانا
ودَخْنانا وسَخْنانا وسَفْيانا وضَحْيانا
وصَوْجانا وعَلاّنا وقَشْوانا ومَصّانا
وَمُوتانا ونَدْمانا وأتبعهن نصرانا

انظر المزهر للسيوطى جـ٢ ص ١١٣

١ ـ (الحبلان) الرجل الكبير البطن قال في القاموس حبل من الشراب والماء فهو حبلان وهى حبلى ومن الغضب وهو حبلان وهى حبلانة .

٢ ـ (الدخنان) يوم دخنان كثير الدخان .

٣ ـ (يوم سخنان) كثير السخونة .

٤ ـ (سفيان) الرجل الطويل المشوق الضامر انظر القاموس .

٥ ـ (ضحيان) يوم ضحيان ضاحى قال في القاموس رجل ضحيان يأكل في الضحى ، ويوم ضحيان : لاغيم فيه

٦ ـ (الصوجان) من الابل والدواب الشديد الصلب .

قال في القاموس : الصوجان كل يابس والصلب من الدواب والناس ونخلة صوجانة يابسة كزة السعف ، وأى صوجان ؟ هو أى الناس ؟

٧ ـ (غلان) الرجل الكثير النسيان وقال في القاموس :

الغَلَل محركه وكأمير العطش أو شدته أو حرارة الجوف وقد غُل بالضم فهو غليل ومغلول ومغتل ومعبر غل (وغلان) (وغَل يَغَل) بفتحهما الحقد كالغِل بالكسر ، وقد غَلّ صدرى يَغِلّ (من باب ضرب يضرب) من حرارة الحب والحزن ، والعلاّن (بالعين) الضغير الحقير كما في المرجع جـ ١ ص٩٦

٨ ـ (القشوان) القليل اللحم وفي القاموس : القشوان الدقيق الضعيف وهى بهاء .

٩ ـ (المصان) اللئيم .

١٠ ـ (الموتان) الضعيف الفؤاد قال في القاموس : رجل موتان الفؤاد بليد .

١١ ـ (ندمان) النديم : ندم فهو ندمان أى نادم ، ونادمنى فلان على الشراب فهو نديمى وندماني وجمع النديم ندام وجمع الندمان ندامى والمرأة ندمانه والنسوة ندامى أيضا .

١٢ ـ (نصران) نصراني والجمع نصارى والنصرانة واحدة النصارى قد استدرك عليه لفظان وهما خَمْصان لغة في خُمْصان بضم الخاء وأليان في كبش أليان أى كبير الالية فذيل الشارح المرادى أبياته بقوله

وزد فيهن خمصانا على لغة وأليانا

ومما يجدر ملاحظته أن النحاة يمثلون (لفَعْلان) الذى مؤنثه على (فعلى) بعطشان وغضبان وسكران مع أن كتب اللغة كالقاموس تذكر للثلاثة مؤنثا مختوما بالتاء ومؤنثا آخر ليس مختوما بها وَمَرَدُّ ذلك أن كتب اللغة تذكر ذلك تبعا للغة بنى أسد التى تلحق التاء في مؤنث فَعْلان اطرادا مثل سكران ونظائرها قال ابن جنى في المحتسب (١) :

يقال رجل سكران وأمرأة سكرى كغضبان وغضى ، وقد قال بعضهم (يعنى لغة بنى أسد) سكرانة كما قال بعضهم غضبانة (والأول أقوى وأفصح) انتهى .

ونظرا لكثرة ما ورد من ذلك أخذ المجمع اللغوى القاهرى بلغة بنى أسد في جواز إلحاق تاء التأنيث بكلمة سكرانة ونظائرها وفيما يلى نص القرار كما قدمته اللجنة المختصة (٢) ووافق عليه المجمع وأخذ به نهائيا (أن تأنيث (فعلان) بالتاء لغة كما في بنى أسد (كما في الصحاح) ـ أو لغة بنى أسد (كما في المخصص) (٣) وقياس هذه اللغة صرفها في النكره (كما في المفصل*) .

والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ وان كان غير ما جاء خيرا (كما في قول ابن جنى) لذا يجوز أن يقال : عطشانة وغضبانة وأشباهها ومن ثم يصرف (فعلان) وصفا ويجمع (فعلان) ومؤنثة (فعلانة) جمع تصحيح ولعلك تدرك الآن أن الجمهور من النحاة يأخذ بما اطرد عن جمهور العرب وهو أن فَعْلان مؤنثه الغالب المطرد على (فَعْلى) وورد من غير الغالب الاسماء التى ذكرتها تبعا لابن مالك في منظومته .

فعلان وصف لمذكر ولا مؤنث له :

وقد تكون صيغة (فعلان) دالة على المذكر الذى لا مؤنث له في الواقع لا على (فَعْلى) ولا على (فَعْلانة) مثل : (رحمان) علم على الله جل شأنه ، و (لحيان) لكثير اللحية

---

١ ـ انظر المحتسب حـ ٢ ص ٧٢

٢ انظر المجلد الشامل للمحاضرات والبحوث ص ٨٣ ، ٩١ التى ألقيت فى مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين المنعقد ببغداد سنة ١٩٦٥

٣ ـ المخصص لابن سيدة * شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ٦٦

جمع فعلان

(فَعْلان) المذكر الذى مؤنثه على (فعلى) لا يجمع جمع التصحيح وإنما يجمع جمع التكسير وذلك لأنه وصف غير جار على فعله وذلك أن الصفات على ضربين أحدهما ما كان جاريا على الفعل كضارب وضاربة وثانيهما ما ليس جاريا على الفعل كأحمر وحمراء ، وسكران وسكرى فما كان من الأول فإنه يجمع جمع السلامة أى بالواو والنون في جمع المذكر السالم وبالألف والتاء في جمع المؤنث السالم تقول : قائمون وقائمات وضاربون وضاربات وذلك لأنه لما جرى على الفعل شبه بلفظ الفعل الذى يتصل به ضمير الجمع للمذكر والمؤنث لان الفعل يسلم ويتغير بما يتصل به فقولك ضاربون مثل يضربون وضاربات بمنزلة يضربن .

وما كان (١) من الثاني وهو غير الجارى على الفعل فلا يجمع جمع السلامة مثل (فَعْلان ومؤنثه فعلى) (وأفعل ومؤنثه فعلاء) إلا في ضرورة الشعر مثل قول حكيم الأعور يهجو امرأة الكميت بن زيد باهل وكان مولعا بهجاء مضر ؛ لأنه من بنى كلاب .

فما وَجَدَتْ بناتُ بنى نزارٍ حَلاَئِلَ أَحْمَرِين وأَسْوَدِينا

ولا يجوز هذا الا ابن كيسان فيقول لا أرى بأسا به ولكن مذهب الجمهور يمنعه ويجعله ضرورة لا يصح لنا ارتكابها ولذلك لا يجمع (فعلان: فعلى) جمع السلامة فان سميت بشئ من ذلك جاز أن تجمعه جمع السلامة لأنه اسم . . . وقال الرضى في شرح (٢) الكافية مفصّلا هذا الحكم :

« وأما الخاص من شروط الجمع بالواو والنون فشيئان : العلمية وقبول تاء التأنيث أما العلمية فمختصة بالأسماء وأما قبول التاء فمختص بالصفات فلم يجمع هذا الجمع (أفعل فعلاء) (وفعلان فعلى) وما يستوى مذكره ومؤنثه كما ذكرنا في باب التذكير والتأنيث ، وانما اعتبر في الصفات قبول التاء لان الغالب في الصفات أن يفرق بين مذكرها ومؤنثها بالتاء لتأديتها معنى الفعل ، والفعل يفرق بينهما فيه بالتاء ، نحو الرجل قام ، والمرأة قامت وكذا في المضارع التاء وان كان في

١ ـ انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٥ ص ٦٠ .
٢ ـ انظر شرح الكافية ج ٢ ص١٨٢ طبعة بيروت .

الاول نحو : تقوم والغالب في الأسماء الجوامد أن يفرق بين مذكرها ومؤنثها بوضع صيغة مخصوصة لكل منها (كعير وأتان) وجمل وناقة (وحصان وحجر) (١) ويستوى مذكرها ومؤنثها كبشر وفرس هذا هو الغالب في الموضعين وقد جاء العكس أيضا في كليهما نحو احمر وحمراء والأفضل والفضلى وسكران وسكرى في الصفات وكامرئ وامرأة ورجل ورجلة في الاسماء فكل صفة لا يلحقها التاء فكأنها من قبيل الاسماء ، فلذا لم يجمع هذا الجمع (افعل فعلاء) (وفعلان فعلى) وأجاز ابن كيسان أحمرون وسكرانون واستدل بقوله :

فما وجدتْ بناتُ بنى نزارٍ حلائل أَسْوَدين وَأَحْمرينا

وهو عند غيره شاذ وأيضا حمراوات وسكريات بناء على تصحيح جمع المذكر والاصل ممنوع فكذا الفرع وأجاز سيبويه قياسا لا سماعا ندمانون في قولهم : ندمان لقبوله التاء كندمانة وكذا سيفانون لقولهم : سيفانة قال سيبويه : لا يقولون ذلك وذلك لأن الأغلب في (فَعْلان) الصفة ان لا يلحقه التاء فندمانة وسيفانة كأنهما من قبيل الشذوذ فالأولى ان لا يجمعا هذا الجمع حملا على الأعم الأغلب انتهى .

ومن هذه النصوص يتبين أن (فَعْلان) الذى مؤنثه على فَعْلى لا يجمع جمع التصحيح وانما يجمع جمع التكسير (٢) وقد جمع (فعلان) تكسيرا على صيغ كثيرة منها :

١ – (فِعَـــال) (٣)

شاع فِعَال (بكسر الفاء) في وصف على فَعْلان ومؤنثه فَعْلى وفعلانة تقول : غضبان وغضاب ، وغضبى وغضاب وندمان وندام ، وغَرثان (٤) وغِراث ،

---

١ – هى بالاصل حجر بكسر الحاء

٢ – انظر الشافية ج ٢ ص ١٧٤

٣ — قال ابن مالك فى الالفية حيث يتحدث عن الاسماء والصـــفات التى تجمع على فعال : وشاع فى وصف على فعلانا وانثيية او على فعلانا وانظر شرح الاشمونى ج ٤ ص ٩٨ والشافية ج ٣ ص ١٧٣ .
انظر سيبويه ج ٢ ص ٢١٢

٤ — غراث جمع غرثان كعطشان وهو الجرعان وتقول غرث الرجل يغرث كفرح يفرح فهو غرث وغرثان وامراة غرثى وغرثان والجمع غرثى كجرحى ،وغراثى كسكارى ، وغراث كعطاش .قال الشاعر : غراث الوشح صافية البرين اى دقيقة الخصر لا يمـــلاوشاحها فكانه غرثان والبرين كل حلقة من سوار وقرط وهذا كناية عن كونها سمينة .

٢ – (فعـــلى) وجمع فَعْلان على (فَعْلَى) تقول :

وجياع جمع جوعان إلا أنه لا يطرد فيه وجعله ابن مالك في التسهيل مطردا فيه .

رجل سكران ورجال سكرى (١) ، ورجل روبان (٢) وقوم روبي قال بشر :

فأما تميم تميم بن مر فألفاهم القوم روبي نياما

قال الرضى (٣) : (ولا يبعد أن يكون سكرى وروبي) في مثل هذا الموضع مفردا مؤنثا (لفعلان) وذلك لان مؤنث فعلان الصفة من باب فعل يفعل قيامه (فعلى) وصفة المفرد المؤنث تصلح للجمع المؤنث .

٣ – (فَعَالَىَ) وجمع (فَعْلان) (٤) على فَعَالَى تقول :

سكران وسكارى . وغضبان وغضابي ومثلهما سكرى وغضبى وتقول : شاة حرمى أى مشتهية للنكاح وشياه حرامى . وانما جمع فعلان كسكران على فَعَالَىَ تشبيها للألف والنون بالألف الممدودة فسكران وسكارى كصحراء وصحارى .

وجاء الضم في جمع بعض فَعْلان الذى مؤنثه فعلى خاصة وهو في كسالى وسكارى أرجح من الفتح ، وانما ضم في جمع فعلان خاصة لكون تكسيره على أقصى الجموع خلاف الأصل ؛ وذلك لانه إنما كسر عليه لمشابهة الألف والنون فيه لألف التأنيث فغير أول الجمع غير القياسى عما كان ينبغى أن يكون عليه لينبه من أول الامر على أنه مخالف للقياس وأوجب الضم في قدامى جمع قادمة وأسارى جمع أسير والزام الضم فيهما دلالة على شدة مخالفتهما لما كان ينبغى أن يكسرا عليه .

وفي المفصل أن بعض العرب يقول : كسالى وسكارى وعجالى ، وغيارى كل هذا يضم أوله .

---

١ ـ وبه قرأ حمزة والكســـائى(وترى الناس سكرى وما هم بسكرى)مع الامالة وانظر الاشمونى ج ٤ ص ٩٧ .

٢ ـ قال فى اللسان : راب الرجل‌روبا تحير وفترت نفسه من شبع اونعاس ، وقيل سكر من النوم وقيل اذا قام من النوم خائر البدن والنفس،ورجل‌رائب وارب وروبان والانثى‌رائبةعن اللحيانى لم يزد على من قوم روبى اذا كانوا كذلك وقال سيبويه : هم‌الذين‌اتخنهم‌السفر والوجع‌فاستلقوا نوما وهو فى الجمع شـــبيه بهلكى وسكرى ، واحـــدهم روبان وقال‌الاصمعى : واحدهم رائب مثل مائق‌وموقى وهالك وهلكى .
انظر سيبويه ج ٢ ص ٢١٤

٣ ـ انظر الشافية ج ٢ ص ١٤٠والاشمونى ج ٤ ص ٩٧

٤ ـ انظر سيبويه ج ٢ ص ٢١٢،والاشمونى ج ٤ ص ١٠٥ والشافية ج ٢ ص ١٦٧ ، ص١٧٤

(جمع عُريــان)

ومما تجدر ملاحظته أن بعض الناس يقعون في أخطاء شائعة فيشيع على الألسنة جمع عريان على عرايا وهذا الجمع للعريان غير صحيح وانما العرايا جمع (العرية) وهى النخلة يمنحها الغنى الفقير لينتفع بثمرها .

فأما عريان فيجمع في التصحيح اذا كان للعقلاء على عريانون وفي التكسير يجمع على عراة وقد جاء الخطأ في جمع عريان على عرايا من قبل شبهه بخزيان وندمان وهما يجمعان على خزايا وندامى .

واني أقدم اليك نصا لسيبويه قال في الكتاب جـ ٢ ص ٢١٢ (وان شئت قلت في عريان عريانون فصار بمنزلة قولك : ظريفون وظريفات ، لان الهاء ألحقت بناء التذكير حين اردت بناء التأنيث فلم يغيروا ولم يقولوا في عريان : عراء ، ولا عرايا ، استغنوا بعراة لأنهم مما يستغنون بالشئ عن الشئ حتى لا يدخلوه في كلامهم »

وقوله (لم يقولوا: عِراء) أى كما قالوا خُمصان وخِماص فكان هذا سائغا لهم في القياس أن يقولوا : (عراء) ولكنهم اطرحوه استغناء عنه بعراة ، وقوله (ولا عرايا) أى كما قالوا : خزيان وخزايا وسكران وسكارى ، لان عريان ليس من باب خزيان) .

وقد بان من كلام سيبويه أن عراة ليس في القياس جمعا لعريان وانما هو قام مقام جمعه وهو عراء كخماص ، وذلك أن عراة جمع لعار كقضاه جمع لقاض غير أنه لما كان عريان في معنى عار جعل عراة جمعا لعريان في الاستعمال واستغنى به عن عراء وهذا كما استغنوا بكماة في جمع كمى عن (اكمياء) لما كان (كمى) في معنى كام (وفي اللسان) والكمى الشجاع المتكمى في سلاحه لانه كمى نفسه أى سترها بالدرع والبيضة ، والجمع كماة كأنهم جمعوا كاميا مثل قاضيا وقضاة ».

جمع فعلان اسم الجنس والعلم :

٤ – (فعالين) وقد جمع (فعلان) على فعالين بشرط أن يكون اسما تقول في شيطان شياطين لأنه من شاط يشيط اذا بطل وهلك قال الاعشى : –

قد تخْضَبُ العيرُ من مَكْنون (٢) فائِله وقد يَشِطُ على أرماحنا البطلُ

---

١ – انظر الاشمونى جـ ٤ ص ١٠٥ والشافية جـ ٢ ص ١٦٧ ، ص ١٧٤

٢ – مكنون فائله : الدم

فِعْلان بكسر الفاء وضمها :

ويشارك (فعلان بالفتح ما كان مكسور الفاء أو مضمومها تقول : سِرْحان وسراحين وسُلطان وسلاطين قال في المفصّل (١) : اعلم أن ما كان من الاسماء على وزن فِعْلان فانه يكسر على فعالين ولا فرق في ذلك بين المفتوح الاول والمضمومة والمكسورة .

وقال الرضى (٢) : (كل اسم على فعلان مثلث الفاء ساكن العين كان أو متحركة كَوَرشَان والسَبعُان والظَرِبان يجمع على فعالين الا أن يكون علما مرتجلا كسلمان، وعثمان وعفان ، وحمدان وغطفان وذلك لان التكسير في المرتجل مستغرب بخلافه في المنقول إذ له عهد بالتكسير ولا سيما اذا كان في المرتجل ما ينبغى أن يحافظ عليه من الألف والنون لشبهه بألف التأنيث .

(فعلان) الممنوع من الصرف

١ ــ صيغة (فَعْلان) اذا كانت صفة فانها تمنع من الصرف وذلك بشرطين أن تكون وصفيته أصلية (غير طارئة) وأن يكون تأنيثه بغير التاء وذلك صادق على نوعين أحدهما أن يكون تأنيثه الشائع عند العرب بألف التأنيث المقصورة ، والثاني أن يكون خاصا بالمذكر فلا مؤنث له كلحيان ، ورحمان ومثال الأول عطشان وغضبان وسكران ، صديان فأشهر مؤنثاتها على (فعلى) فان كان الغالب المسموع على مؤنثه وجود تاء التأنيث في آخره لم يمنع من الصرف تقول : نظرت الى سيفان بالجر بالكسرة ، وكذلك لا يمنع من الصرف اذا كانت الوصفية طارئة غير أصلية مثل كلمة صفوان والتى معناها الحجر قد تستعمل استعمال الصفات فتقول : لا حبذا رجل صفوان قلبه فكلمة صفوان هنا لا تمنع من الصرف، واذا كان من الصفو فتقول يوم صاف وصفوان أى بارد وبلا غيم فحينئذ يمنع من الصرف فهى في الأول عارضة الوصفية فصرفت بخلافه في الثاني .

---

١ ــ انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٥ ص ٦٤

٢ ــ انظر شرح المفصل لشافية ج ٢ ص ١٧٢

٣ ــ انظر ما ينصرف ومالا ينصرف للزجاج ص ٣٥ ، ٣٦

٢ – وصيغة (فعلان) اذا كانت علما (١) فانها تمنع من الصرف كذلك للعلمية وزيادة الالف والنون سواء كان علما على الإنسان أم علما على غيره نحو بدران ، قحطان ، عدنان ، شعبان .

ويشارك (فعلان) بالفتح والسكون ما كان بغيره كرمضان ، غطفان (٢) ، عِمْران وعُثْمان .

فإن كان الألف والنون صالحين للزيادة والأصالة جاز في الاسم الصرف وعدمه بهذين الاعتبارين نحو (حسان) علما على شخص فيجوز ان يكون مشتقا من الحسّ بمعنى الشعور فيمنع من الصرف لان الحرفين زائدان ، وان كان مشتقا من الحُسن وهو الجمال فلا يمنع من الصرف لأن وزنه حينئذ فعّال لا (فعلان) ومثله (غسان) قد يكون من الغسّ بمعنى الدخول في البلاد فيمنع من الصرف وقد يكون من الغَسن بمعنى المضغ فلا يمنع لان وزنه (فعال) وكذلك عفان من العفة والعفن وحيان من الحين وهو الهلاك ومن الحياة .

وكذلك قبان من قبن في الارض اذا ذهب فيها وعلى هذا يصرف لان النون فيه اصلية ووزنه (فعال) ويجوز ان يكون من القب وهو شدة الخصومة ، وقب بطنه اى قطع وحينئذ يمنع من الصرف لأن وزنه (فعلان) .

يقول ابن يعيش (٣) وأما الالف والنون المضارعتان لالفى التأنيث (٤) فهى من لاسباب المانعة من الصرف من حيث كانتا زائدتين والزائد فرع على المزيد عليه وهما مع ذلك مضارعتان لالفى التأنيث نحو حمراء وصحراء ، والالف في حمراء وصحراء يمنع الصرف فكذلك ما اشبهه وذلك نحـــو عطشان وسكران وغرثان وغضبان واعتباره ان يكون (فعلان) ومؤنثه (فعلى) نحو قولك : في المذكر عطشان وفي المؤنث عطشى وسكران ، وفي المؤنث سكرى وغرثان وفي المؤنث

---

١ ـ قال ابن مالك :

كذلك حـــاوى زائدى فعلانا كغطفان وكاصبهانا

وفى اصبهان لغات كثيرة : منهـــا كسر الهمزة ، ومنها ابدال بائها فاءولا تكون الالف والنون زائدتين الا على اعتبار ان اصل الكلمة عربى اما على الراى القائل انها اعجمية وهو الصواب فلا تمنع للعلمية مع الزيادة وانما تمنع للعلمية والعجمة

٢ ـ الغطف : اقتماع النعة .

٣ ـ انظر شرح المفصل ج ١ ص٦٦ ، شرح الكافية ج ١ ص ٦٠

٤ ـ فالسبب فى منع (فعلان) من الصرف فيه خلاف اما لانه ينتهى بزيادة تشبه الف التانيث وهذا عند سيبويه ، والمبرد يقول امتنع فعلان من الصرف لكون النون بعد الالـــف مبدلة من الف التـــانيث ، والكوفيون يقولون امتنع (فعلان) لكون النون بعد الالف زائدتين لا يقبلان الهاء .

انظر شرح الاشمونى ج ٣ مبحث الممنوع من الصرف للزيادة .

غرثي لا تقول : سكرانة ولا عطشانة ولا غرثانة في اللغة الفصحى ، وانما قلنا : فعلان ومؤنثه فعلى) احترازا من فعلان آخر لا فعلى له في الصفات قالوا رجل سيفان للطويل الممشوق ، وقالوا امرأة سيفانة ولم يقولوا (سيفى) ووجه المضارعة بين الألف والنون في سكران وبابه وبين الفى التأنيث في حمراء وقصباء انهما زيدتا معا كما انهما في حمراء كذلك وأن الاول من الزائدتين في كل منهما ألف ، وأن صيغة المذكر مخالفة لصيغة المؤنث وأن الآخر من كل واحد منهما يمتنع من إلحاق التاء للتأنيث ، ثم يقول: اما الاعلام نحو : مروان وعدنان ، وغيلان فهى اسماء لا تنصرف للتعريف وزيادة الألف والنون واعلم ان هذه الالف والنون في هذه الاعلام وما كان نحوها محمولات على باب عطشان وسكران لقرب ما بينهما الا ترى أنهما زائدتان كزيادتهما وأنه لا يدخل عليها تاء التأنيث لا تقول : مروانة ولا عدنانة لان العلمية تحظر الزيادة كما تحظر النقص وليس المانع من الصرف كونه على فعلان بفتح وسكون) ألا ترى ان عثمان وزبيان وشعبان حكمها حكم عدنان وغيلان) انتهى .

وقال الرضى (١) : اعلم أن الألف والنون إنما تؤثران لمشابهتهما ألف التأنيث الممدودة من جهة امتناع دخول تاء التأنيث عليهما معا وبفوات هذه الجهة يسقط الألف والنون عن التأثير . .

ثم انهم بعد اتفاقهم على ان تأثير الالف والنون لاجل مشابهة ألف التأنيث اختلفوا ، وقال الأكثرون تحتاج الى سبب آخر ولا تقوم بنفسها مقام سببين كالألف لنقصان المشبه عن المشبه به وذلك الاخر إما العلمية (كعمران) وإما الصفة كما في (سكران) .

وذهب بعضهم إلى أنها كالالف غير محتاجة إلى سبب آخر فالعلمية عندهم في نحو (عمران) ليست سببا بل شرط الالف والنون ، اذ بها يمتنع عن زيادة التاء وهذا الانتفاء هو شرطها سواء كانت مع العلمية أو الوصف والوصف عندهم في نحو (سكران) لا سبب ولا شرط ، والاول أولى لضعفها فلا تقوم مقام علتين .

---

١ انظر شرح الكافية ج ١ ص ٦٠ وما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج ص ٣٥ ، ٣٦

هل المؤثر انتفاء التاء أم وجود فعـــلى ؟

الرأى السائد أن المزيد بالالف والنون انما يمنع من الصرف بشرط الا يكون مؤنثه بالتاء ، فانتقاء التاء هو الشرط الضرورى للمنع من الصرف .

وقرل بعضهم إن الشرط هو أن يكون مؤنثه على فعلى أى يكون مؤنثه على غير لفظه ، قال ابن الحاجب في الكافية عارضا هذين الرأيين (أو صفة فانتقاء فعلانة وقيل وجود فعلى ومن ثم اختلف في رحمان دون سكران ونديمان) قال الرضى معقبا عليه : وقوله : (وقيل وجود فعلى) والاول أولى لان وجود (فعلى) ليس مقصوداً لذاته بل المطلوب منه انتقاء التاء ، لأن كل ما يجئ منه (فعلى) لا يجئ منه فعلانة في لغتهم الا عند بعض بنى أسد فانهم يقولون في كل فعلان جاء منه فعلى : (فعلانة) أيضا نحو : غضبان وسكران فيصرفون إذن (فعلان فعلى) وهذا دليل قوى على أن المعتبر في تأثير الالف والنون انتفاء التاء لا وجود فعلى ، ثم يدلل على قوله ببعض الالفاظ التى لا يكون مؤنثها على — (فعلى) ومع هذا فهى ممنوعة من الصرف .

يقول الرضى : فاذا كان المقصود من وجود (فعلى) انتفاء التاء وقد حصل هذا المقصود في (رحمان) لا بواسطة وجود (رحمى) بل لانهم خصصوا هذه اللفظة بالبارئ تعالى فلم يطلقوه على غيره ولم يضعوا منه مؤنثا لا من لفظه أعنى بالتاء ولا من غير لفظة أعنى (فعلى) فيجب أن يكون غير منصرف .

فان قلت لا نسلم أن وجود (فعلى) مطلوب ليطرق به الى انتفاء فعلانه بل هو مقصود بذاته لانه يحصله بوجودها مشابهة بين الالف والنون وبين ألف التأنيث لكون مؤنث هذا على غير لفظـــه كما أن مذكر ذاك على غـــير لفظه قلت هذا الوجه وان كان يحصل به بينهما مشابهة الا أنه ليس وجها للمشابهة ضروريا بحيث لا يؤثر الألف والنون بدونه بل الوجه الضرورى كما ذكرنا في التأثير انتفاء فعلانه الا ترى الى عدم انصراف مروان وعثمان بمجرد انتفاء التاء من دون — وجود (فعلى) انتهى كلام الرضى .

ويقول الامام بدر (١) الدين محمد الزركشى في التنبيه الثالث في معرض — الحديث عن لفظة (رحمان) : أنه لو جرد عن الالف واللام لم يصرف لزيادة

١ — انظر البرهان فى علوم القرانج ٢ ص ٥٠٩ التنبيه الثالث .

الالف والنون في آخره مع العلمية أو الصفة .

وأورد الزمخشرى (١) بأنه لا يمنع (فعلان) صفة من الصرف الا اذا كان مؤنثه على (فعلى) كغضبان وغضبى وما لم يكن مؤنثة على (فعلى) ينصرف كندمان وندمانة وتبعه (٢) ابن عساكر بأن رحمن ، وان لم يكن له مؤنث على فعلى فليس له مؤنث على فعلانة لأنه اسم مختص بالله تعالى فلا مؤنث له من لفظه . فاذا عدم ذلك رجع فيه إلى القياس وكل ألف ونون زائدتين فهما محمولتان على منع الصرف .

قال الجوينى وهذا فيه ضعف في الظاهر وان كان حسنا في الحقيقة لانه اذا لم يشبه غضبان ولم يشبه ندمان من جهة التأنيث فلماذا ترك صرفه مع أن الأصل الصرف كان ينبغى أن يقال ليس هو كغضبان فلا يكون غير منصرف ولا يصح أن يقال هو كندمان فلا يكون منصرفا لان الصرف ليس بالشبه انما هو بالأصل وعدم الصرف بالشبه ولم يوجد ولعل تقدير ابن عساكر السابق يؤيد إنكار ابن مالك على ابن الحاجب تمثيله ب « رحمن » .

لزيادة الألف والنون مع منع الصرف وقال لم يمثل به غيره ولا ينبغى التمثيل به فانه اسم علم بالغلبه لله مختص به وما كان كذلك لم يجرد من (أل) (٣) ولم يسمع مجردا من (أل) الا في النداء قليلا مثل (يارحمن الدنيا ورحيم الاخرة) .

وقد أنكر الزمخشرى (٤) على شاعر اليمامة قوله :

سموتَ بالمجدِ بابنِ الأكرمين أبَا ... وأنتَ غيثُ الوَرَى لا زلتَ رَحْمانَا

---

١ ـ انظر الكشـــاف للزمخشرى ج ١ ص ٦

٢ ـ انظر التكميل والافهام لابن عساكر

٣ ـ والذى يدل على ان العـــرب كانت تعرف هذا الاسم قوله تعالى :قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما توعوا فله الاسماء الحسنى وقوله :الملك يومئذ الحق للرحمن

وقوله : واذا قيل لهم اســـجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فجهلـــوا الصفة دون ـ الموصوف ولذلك لـــم يقولوا ومن الرحمن .

انظر البرهان ج ٢ ص ٥٠٣ ويقول ابو حيان فى البحر المحيط ج ١ ص١٧ الرحمن فعلان من الرحمة واصل بنائه من اللازم من المبالغة وشذ من المتعد (وال) فيه للمغلبة كهى فى الصعق فهو وصف لم يستعمل فى غير الله كما لم يستعمل اسمه فى غيره وسمعنا مناقبة قالوا : رحمـــن الدنيا والاخرة ، ووصف غير الله به من تعنت الملحدين ، واذا قلت اللهرحمان ففى صرفه قولان يسند احدهما الى اصل عام وهو ان اصل الاســـم الصرف ، والاخر الى خاص وهو ان اصل (فعلان) المنع لغلبته فيه .ومن غريب ما قيل فيـــه انه اعجمى بالخاء المعجمة فعرب بالحاء قاله ثعلب وذهب الا علم وابن الطراوة وغيرهم الى انه اسم علم مشتق من المتعدى كما اشتقوا الدبران من دبر صيغ للعلمية ويدل على علميته وروده غير تابـــع لاسم قبله فى اكثر الكلام فعلى قول هؤلاء يكون الرحمن بدلا من اســـم الله .

٤ ـ مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف ج ١ ص ٥

وأجاب ابن مالك بأن الشاعر اراد (لا زلت ذا رحمة) ولم يرد الاسم المستعمل بالغلبه وحينئذ يستعملونه مضافا ومنكرا وقد أنكر على الشاطبي قوله في أول أرجوزته المعروفة في القراءات والمسماة حرز الأماني ووجه التهاني .

بدأت ببسم الله في النظم أولا تبارك رحمانـــا رحيما وموئلا

لانه اراد الاسم المستعمل بالغلبة وكان ينبغي عليه ان يعرفه بالألف واللام ، ولما كان الرحمن علما لا صفة كما يقول :

الأعلم وابن مالك وصف بقوله في البسمله (الرحمن الرحيم) وليس الرحيم مرادفا للرحمن (١) فالرحمن كالعلم لا يوصف به الا الله تعالى فلهذا قدم ، لان حكم الاعلام وغيرها من المعارف ان يبدأ بها ثم يتبع الأنكر أى الأقل في الصفة وما كان من التعريف أنقص .

وهذا مذهب سيبويه وغيره من النحويين فجاء هذا على منهاج كلام العرب ومثل (رحمان) ، (لحيان) (٢) لكبير اللحية وفيه الخلاف المذكور والصحيح منع صرفه ايضا ، لانه وان لم يكن له (فعلى) وجودا فله (فَعْلى) تقديرا لانا لو فرضنا له مؤنثا لكان (فعلى) أولى به من (فَعْلانةُ) لان باب فَعْلان فَعْلى أوسع من باب فعلان فعلانة فالأولى أن يحمل على أوسع البابين انتشارا عند العرب ، والتقدير في حكم الوجود بدليل الاجماع على منع أكمر (٣) وآدر (٤) مع أنه لا مؤنث له ولو فرض له مؤنث لامكن ان يكون كمؤنث أرمل وان يكون كمؤنث أحمر لكن حمله على احمر اولى لكثرة نظائره .

ويقول ابو حيان الصحيح فيه الصرف لأنا جهلنا النقل فيه عن العرب والاصل في الاسم الصرف فوجب العمل به فهذه المسألة مما تعارض فيها الأصل والغالب .

(للحديث بقية)

---

١ ـ قال الامام محمد عبـــده فى تفسيره لسورة الفاتحة وقد ميز بين صيغتى الرحمن الرحيم فعنـــده ان الرحمن من يكثر من الافعال الرحيمة فهى صيغة مبالغة ، والرحيم من طبيعته الرحمة فالرحيم كسائر ما نسميه فى الصرف صفة مشبهة تدل على الطبيعة الملازمة لصاحبها .

٢ ـ انظر شرح الاشمونى جـ ٣ ص ١٧٤ ، ومـا لا ينصرف للـــزجاج ص ٣٥ ٣٦

٣ ـ الاكمر وصف على افعـــل لا مؤنث له يقال لكبير الحشفة .

٤ ـ الآدر وصف على افعل لا مؤنث له يقال لكبير الخصيتين

انظر البحر المحيط جـ ١ ص ٧

تسعة أغلاط في خبر صغير

قال مؤلفو المنجد في تعريف ابي سفيان بن حرب (رض) :

أبو سفيان تاجر عادى النبى وحاربه في بـــدر واحد وقاد جناحاً من الجيش الكبير الذى زحف لحصـــار المدينة في وقعة مُوته سنة ٦٢٧ ثم اعتزل الحرب وصالح محمداً في معاهدة الحديبية وسلمه مكة . كان في وقعة اليرموك توفي نحو ٦٥٢ .

التعقيب

١ ــ هو أبو سفيان صخر بن حرب الأموى القرشى .

٢ ــ ابو سفيان لم يشهد بدراً بل مضى بالقافلة الى مكة .

٣ ــ خلط مؤته بالمدينة وإنما قاد الجناح في معركة الخندق .

٤ ــ لم يشهد مؤته قط .

٥ ــ وكانت وقعة مؤته سنة ثمان للهجرة وتقابل سنة ٦٢٩ م لا ٦٢٧ كما زعم المنجد .

٦ ــ لم يحضر صلح الحديبية وكان سهيل بن عمرو هو مندوب قريش اليها .

٧ ــ صلح الحديبية لم يسفر عن تسليم مكة وإنما تم فتحها بعد ذلك .

٨ ــ لم يسلم ابو سفيان مكة بل منح بعض التكريم من قبل رسول الله تألفاً له .

٩ ــ يحدد المنجد وفاته بعام ٦٥٢ وانما هو عام ٦٥٥ الموافق لعام ٣٤ للهجرة .

الإسراء و فلسطين

ودولة اليهود

لفضيلة الشيخ أسعد بيوض التميمي – مدير المسجد الأقصي

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسراء وعلاقته بقضية المسلمين في الارض المباركة

اشتد الصراع بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الكفار من قريش حيث خافت قريش على ما يوفره الكفر لها من امتيازات طبقية ودينية ، وامتيازات اقتصادية واخذ الصراع بين الحق والباطل يتصاعد بين الدين الجديد وما يمثله من خير للانسان وما يعطيه للبشرية من حياة كريمة يعبد فيها الانسان ربه الذى خلقه ويسجد لبارئه الذى اوجده فلا يسجد لبشر ، ولا ينحنى امام حجر او شجر . ولا يعبد فلكا ولا مظهرا من مظاهر الكون وانما يستمد العزة لنفسه من عبادة الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد .

اشتد الصراع بينه وبين الشرك ومـا يمثله من انحطاط في الفكر الانساني والسلوك البشرى الـذى يظهر في السجود لحاكم أو رجل دين او حجر أو شجر أو فلك. ذلك الانحطاط الذى ينتج عنه ان الغرائز في الانسان تتحكم في مسيرته لا مقياس عنده يقيس به الامور ولاحلال ولا حرام ، وانما كل امر مباح من قتل نفس او ظلم انسان أو اكـل مال حرام ، او استعباد نفس واذلال للخلق فلا عجب ان ظهرت الطبقية العرقية الممثلة في السادة والعبيد والاشراف والسوقة والطبقية الاقتصادية الممثلة في تجـارة الربا وأكل اموال الناس بالباطل ،

واستغلال حاجة الآخرين للاثـــراء غير المشروع والطبقية الدينية بحيث يصبح الدين وفهمه احتكارا على طبقة معينة وناس مخصوصين يستغلون جهـــل الناس ويطلبون منهم أن يعبدوهم ويطلبـــون منهم تقديم النذور والقرابين لهم ولمـــا يمثـــلون .

واخـــذ الكفـــر يقاتـــل عن مواقعه بشراسة حتى اضطر المسلمون الى الهجرة مرتين فرارا بدينهم وحرصا على عقيدتهم ، وحتى يأذن الله بالفرج .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم في مكة يقارع قومه الحجة ، يبين باطل ما هم فيه وما عليه حياتهم ، ولكنهم اصابهم الكبـــر ولحق بهم العناد وكان الله قد هيأ له زوجـــة صالحة تعتنى بامره وتدعمه بما لهـــا ، وتخفف عنه قسوة عناد قومه ، وجهل عشيرته ، وهيـــأ له كذلك عمه ابا طالب يحميه ، ويمنعهم من قتله واغتياله ، وان لم يمنع عنه ما دون القتل والاغتيال من الاذى وهم مع هذا يحسبون حساب عمه من حين ايذائه حتى ان بعضهم يطـــرح عليه سلا جزور وهو يصلى .

ثم ان خديجة رضى الله عنها ، وابا طالب هلكا في عام واحد قبل هجرته بثلاث سنين فعظمت المصيبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهما وذلك ان قريشا وصلوا في اذاه بعد موت ابي طالب الى مالم يكـــونوا يصلون اليه في حياته منه حتى نثروا التراب على رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم فدخـــل الرسول بيته والتراب على رأسه فقامت اليه احدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله يقـــول لها يا بنية لا تبكى فـــان الله مانـــع ابـــاك .

ولمـــا استعصت قريش ، وصمت اذانها ، واغلقت قلوبها وعقولها ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى الطائف فلما وصلها عمد الى نفـــر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم وهم ثلاثة اخـــوة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمـــرو بن عمير ، فردوه ردا غير جميل فقـــال احدهم هو يمرط ثياب الكعبة ان كان الله قد ارسلك ، وقـــال الآخر اما وجد الله احدا يرسله غيرك ، وقال الثالث والله لا اكلمك كلمة ابـــدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من ارد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى ان اكلمك .

فقـام رسول الله من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قـال لهم فيما ذكره شيخ المؤرخين المسلمين الطبرى وانا اروى عنه : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ قومـه عنه فيذئرهم ذلك عليه فلم يفعلوا واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون بـه حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذ يناجى ربـه مناجـاة الصابر المحتسب يطلب منه المـدد والعـون حيث قـومه لا يستجيبون للنور ولا يلتقون على الخير ، والطائف كانت اسوأ من مكة ، وأقسى من قريش ، فاخذ يقول كما يـروى الطبرى « اللهم اني اشكو اليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتى وهواني على الناس يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين وانت ربي الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى ام الى عـدو ملكته امـرى ان لم يكن بك على غضب فلا ابـالى ولكن عافيتك هى اوسع لى اعـوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والاخـرة من ان تنزل بي غضبك ، او يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حـول ولا قوة إلا بك »

في هـذا الجو القاتم الشرس كان الله بنبيه رؤوفـا رحيما ، وكانت حادثة الاسراء من مكة الى القـدس ، وكان المعراج من ارض المسجد الاقصى الى السموات العلا الى سدرة المنتهى عندها جنة المـأوى ، وكان في الاسراء اكثر من معنى ، واثره لا يزال على مر الايـام وكـر السنين يفعـل .

يكرم الله نبيه على صبره ويجازيه الجزاء الاوفي على تحمله فيستدعيه اليه ويقربه منه ، ويرفعه الى درجة لم يصلها احد من خلقه حتى ولا الملائكة المقربون . ويقدم له ارض الشام ، ارض فلسطين ارض القدس ، المسجد الاقصى هدية ايمان وجائزة رضوان فيفتح النبى ارض الشام ، ومنها ارض فلسطين فتحا ماديا بجسده الشريف ، ويعلن الله للدنيا في ذلك الحين وللدنيا في هذا الحين وللدنيا في كل حين ان المسجد الاقصى اصبح مسجدا للمسلمين ، فيصلى فيه النبى الصلاة الاسلامية الاولى اماما للانبياء المرسلين حيث احياهم الله له ويصلى الصلاة الثانية بعده عمر

وابو عبيدة ، وكبار الصحابة والجنود المؤمنون يوم ان دخل عمر القدس ، واستلمها من بطريركها صفرونيوس واعطـاه العهدة العمرية التى تنص فيما نصت عليه ان لايسكن ايليا (القدس) احد من اللصوص واليهود وذلك أن كبار اصحاب رسول الله كانوا على علم منه لا يعلمه بقية الناس ، وهذا النص في الوثيقة يـدل على مبلغ فهم عمر لخطر اليهـود على هذه الارض .

ويذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه القـرآن الكريم هذا الخبر العظيم فيقول في سورة الاسراء « سبحان الذى اسرى بعبده ليـلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حـوله لنريه من آياتنا انه هـو السميع البصير »

وسورة الاسراء تتحدث عن المسجد الاقصى واسراء النبى اليـه وتقـرر ان هـذا المسجد الذى بنى بعد البيت الحرام باربعين سنة كما ثبت في صحيح مسلم عن ابي ذر قال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اول مسجد وضع في الارض قال المسجد الحرام قلت ثم اى قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال اربعـون سنة ثم الارض لك مسجد فحيثما ادركتك الصلاة فصل) فعـاد للمسجد بالاسراء قدسيته وطهره حيث كان المسجد خـرابا يبابا لا يصلى فيه احـد الى ان جاء النبى صلى الله عليه وسلم فتقررت مسجديته بي القرآن واستلمه عمر فكان ينظفه هـو واصحابه من الكناسة وطهـروه واصبح من يومها منـارة علم ودار ايمـان ومحجة زوار ومحراب صلاة .

اذن سورة الاسراء تتحدث عن علاقة المسلمين بالمسجد الأقصـى وان المسجد للمسلمين حيث اسرى بنبيهم اليه،وتقرر بركة ارض الشام او ارض فلسطين ، وتبدأ بعد ذلك في الحديث عن الفساد والعلو لليهود والتدمير الذى سيلحق بهم ، وانهم سينازعون المسلمين ارض الاسراء والمسجد الاقصى .

وهنا لابد ان نقـرر ان علماء التفسير اختلفوا اختلافا كبيرا في (العلوين) والافسادين اللذين اشارت اليهما الآية وهى قوله ثعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلُنّ علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولى بـأس شديد فجاسوا خـلال الديار ، وكان وعدا مفعولا) فقال قوم هم اهـل بابـل ، وكان عليهم بختنصر قالـه ابن عباس رضى الله

عنهما وقال قتادة ارسل عليهم جالوت فقتلهم فهو وقومه اولو بأس شديد ، وقال مجاهد جاءهم جند من فارس يتجسسون اخبارهم ومعهم بختنصر ، وقال محمد بن اسحق ان المهزوم سنحاريب ملك بابل وقيل انهم العمالقة الى غير ذلك من الاقوال المتضاربة ، ونحن حين ننظر الى الآيات نظرة موضوعية نجد الاشياء الآتية : —

أولا : الآيات مكية وتتحدث عن علوين وافسادين لليهود فهل مضى هذان العلوان قبل نزول الاية ام انهما آتيان .

مما لا شك فيه ان اليهود دمروا اكثر من مرة قبل الاسلام ، وقبل نزول الآيات فقد سباهم البابليون ، ودمرهم الرومان وذلك انه منذ ان غضب الله عليهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الله وانبيائه غضب الله عليهم وجعلهم يتصرفون تصرفا يلجئ البشرية الى اذلالهم وضربهم . يقول الله تعالى في سورة البقرة آية ٦١ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ثم تقرر آية اخرى في سورة اخرى ان العذاب سيستمر في اليهود والتدمير لهم الى يوم القيامة : (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) الاعراف آية ١٦٧

اذن لا غرابة ان يكون افساد اليهود وعلوهم ثم تدميرهم اكثر من مرة قبل الاسلام ولا غرابة ان يكون كذلك علو وفساد بعد الاسلام ثم تدميرهم .

وليس هناك ما يمنع ان يكون الفساد والعلو ثم التدمير لمرتين بعد نزول الآيات والواقع ان المتعمق في الآيات يجد المرتين في علو اليهود وافسادهم ثم تدميرهم هما بعد نزول آيات الاسراء .

وذلك ان الله يقول وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فاذا جاء وعد اولاهما ، واذا ظرف لما يستقبل من الزمان ولا علاقة لما بعدها بما قبلها فوجود كلمة اذا في الآية تدل على ان الفساد والعلو ثم التدمير الاول آت وانه لم يمر كما ان استعمال اذا للمرة الثانية يدل على انها آتية لم تمر كذلك .

وقوله تعالى : (بعثنا عليكم عبادا لنا اولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار)

ان الذين سيتولون تدمير اليهود هم من المؤمنين اذ ان الله سبحانه وتعالى حين يضيف كلمة العبـــاد لذاته تكون في موضع التشريف ، ويخص بها المؤمنين يقول الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونـــا) ويقول : (يا عبـــادى الذين اسرفوا على انفسهم) ويقول : (سبحان الذى اسرى بعبده) ، واعظم منزلة للنبى صلى الله عليه وسلم انه عبد الله ورسوله . وفي التحيات (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)

وهذا التشريف والتكريم الايمـــاني لا ينطبق على البابليين ولا على الرومان لانهم جميعا من الوثنيين . اذن ينطبق هذا الوصف على رسول الله واصحابه الذين جاءوا الى المدينة ولليهود فيها نفـــوذ سياسى واقتصادى . وكان من اول اعماله في المدينة ابـــرام المعاهدة السياسية بينه وبين اليهود وان اليهود جماعة مستقلة ، وان المسلمين جماعة مستقلة ، فلما غـــدر اليهود ونقضوا العهد كعادتهم ودأبهم سلط الله عليهم المسلمين فجاسوا خلال الديار اليهودية وتغلغلوا فيها وازالوهم عن المدينة وخيبر وتيماء ، وزال سلطانهم وتدمر علوهم فكان ذلك من خـــلال معارك بنى قريظة وبنى النضير ، ومعارك خيبر الشهيرة ، وتأتي سورة الحشر لتؤكد هذا المعنى في قوله تعالى في وصف معارك المسلمين مع اليهود في المدينة (هو الذى اخرج الذين كفروا من اهـــل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار) آية ٢

اذن هـــو اخراجهم لاول الحشر ، فخرج قسم منهم الى اذرعات من ارض الشام حتى تبدأ المـــرة الثانية من علوهم وفسادهم . ويقـــول الله وكان وعدا مفعولا يعنى في عهد النبى والوحى ينزل وأتمه اصحابه من بعده . وتبدأ الآيات بعد ذلك تتحدث عن المـــرة الثانية من العلـــو والفساد ، فتخبر الآيات ان الله سيجعل لليهود الكرة عليهم على من ؟ على الذين جاسوا خلال الديار اول مرة ، والكـــرة الدولة والسلطة . وحين اراد الله لليهود ان يكـــروا استعمل كلمة (ثم) وثم كما هو معروف معناها العطف مع التراخى او المهلة فهل كر اليهـــود في التاريخ على البابليين وكانت لهم دولـــة وسلطة عليهم ؟

لم يحدث ذلك في التاريخ ، ولن يحدث الآن ولا في المستقبل حيث ان البابليين قد انصرفوا من الدنيا كامة وليس لهم مكان يعـــرفون فيه أو دوله يعيشون فيها وحاشا لله ان لا يصدق القرآن أو يكون خبره غير محقق اذن لابد ان تكون الكرة على ابناء الذين جاسوا خلال الديار وهم المسلمون او العرب المسلمون فقد كر اليهود على ديار الشام وفلسطين منها وهذا هو الذى قد حدث ونعيشه الآن ، ويعاني منه المسلمون كل المسلمين ، وانظـــروا معى الى بقية الآيات تمضى فتصف الواقـــع الذى نعيشه وتعيشه دولـــة اليهود اذ بعد ان جعـــل الله الكرة لليهـــود عـــلينا يقـــول الله لليهود (وامددنـــاكم باموال وبنـــين وجعلناكم اكثر نفيرا) .

وهنا نسأل مـــرة اخرى هل مد الله اليهود في التاريخ بامـــوال وبنين غير هذه المـــرة . لم نعرف ان ذلك قد حدث ، واليهود منذ ان غضب الله عليهم وهم في بـــلاء متصل وعذاب مستمر فقبل الاسلام كان عذاب البابليين لهم والرومان ، وبعد الاسلام اخرجهم المسلمون من الجزيرة ثم بدأت اوربـــا تعذبهم في اسبانيا حتى جاء المسلمون فانقذوهم من الاسبان واستمر العذاب .

واليهـــودى في كل الارض يعتبر انسانا شريرا متآمرا يستحق التعذيب والقتـــل ، وآخر من عذبهم في حياتنا المعاصرة هـــو ادولف هتلر ومعه النازيون

وحتى نـــرى مبلغ صدق الآية ، ونـــرى اعجازها باعيننا نجد دولة اليهـــود اليوم تعيش على البنين الذين يأتونها من اطـــراف الارض ليمدوها بالجند ، وفي هذه الفترة من روسيا بالذات ، وترى الامـــوال من دول الغرب تأتيها بمساعدات مذهلة حتى تستمر في عدوانها وطغيانها وجبروتها ، ثم يقـــول الله وجعلناكم اكثر نفيرا ولذلك فان اكبر قـــوة في الارض أو اكبر دول الارض تساند دولـــة اليهود في حـــال نفرتها وحربها .

اذن هذه هى المرة الثانية من العلو فمـــا بال الفساد ؟ وحتى يتحقق الفساد فترى اليهـــود في دولتهم يرتكبـــون افظع الجرائم بحيث فاقـــوا كل انـــواع العذاب التى عانوا منها في زعمهم أو عانـــاه غيرهم ولذلك يحذرهم الله فيقول لهم (ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها) وهم قد اساءوا فقتلوا النفس الانسانية وعـــذبوها ويتمـــوا الاطفال وسجنوا النساء وهدموا البيوت

واغتصبوا الارض واقاموا المستعمرات وحرقوا الاقصى في ٢١ / ٨ / ١٩٦٩ والاقصى عند الله عظيم ، ودنسوا مسجد الخليل عليه السلام ، والخليل عند الله هو الخليل ، وارتكبوا جريمة الجرائم في مسجد الخليل يوم ان عمدوا الى كتاب الله القرآن العظيم فمزقوه وداسوه .

وهنا تأتي عقوبة الله على ما اقترفوا من الاثم والجرائم بتفسير من الآيات ان دولتكم لن يطول فسادها ولا علوها فيقول الله (فاذا جاء وعد الاخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) وهنا حين يخبر الله عن زوال دولتهم استعمل كلمة الفاء للعطف ولم يستعمل ثم والفاء للعطف مع التعقيب والتعقيب كل شئ بحسبه وما يناسبه وهو يدل على السرعة المناسبة في حصول المقصود (فاذا جاء وعد الآخرة) اى لذهاب علوهم الثاني تصبح وجوه بنى اسرائيل سيئة ويبشرنا ربنا جلت قدرته اننا سندخل المسجد الاقصى كما دخلناه اول مرة ، وفي هذه الآية اشارة لطيفة الى دخولنا المسجد مرتين. والمرتان حدثتا بعد نزول الآية المرة الاولى الفتح العمري للمسجد حين دخله باسم الله والاسلام ، والمرة الثانية هذه التى نحن على ابوابها حيث سيدخل المسلمون المسجد فاتحين للمرة الثانية ، ثم يقرر الله اننا سنتبر أى ندمر ، ونهلك علو اليهود المادى والمعنوى .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان فلسطين لم تعرف العمارات ذات الطوابق التى تزيد عن اربعة او خمسة طوابق الا في ظل اغتصاب اليهود لها . ولذلك فان هذه العمارات الشاهقة التى يقيمونها على الارض المباركة سيلحقها التدمير والخراب ثم تمضى الايات فتحذر اليهود من محاولة العودة للفساد والتعالى فيقول الله لهم (وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) ، وتأتينا البشرى من الله بعد ان يفهمنا ربنا ان القرآن يهدى الى الطريق السوى والحياة الصحيحة تأتينا البشرى بالنصر فيقول : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا». وفي آخر السورة سورة الاسراء آية اخرى تتعلق بهذا الامر ، وهى قوله تعالى في آخر السورة «وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » ولفيفا جماعات ملتفة وفي بقية الآية انذار لليهود وبشرى

لنا، فيقول الله (وبالحق انزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا) بشرى لنا وانذار لهم فاذا ربطنا هذه الايات وتفسير ها بالحديث الذى يدلنا على صدق النبوة ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم حين اخبرنا عن قتال اليهود فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود) .

ايقنا بعد ذلك لماذا لم تنجح المحاولات لتثبيت دولة اليهود وذلك انه منذ سنة ١٩٤٨ ، وكل محاولة للصلح وتثبيت دولة اليهود يفشلها اليهود انفسهم وذلك لان الله يلهمهم الخطأ فيرفضون كل الحلول لان اليهود لا يعالجون أى امر إلا بالحقد والتآمر والخديعة ، ويقرر الله ان لا عقل عندهم فيقول (لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون) ،

وذلك كله يجرى حتى يأتي اليوم الموعود يوم تتخلص المعركة أو ديار المسلمين من الايديولوجيات المنافية للاسلام وذلك ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اخبر في حديث قتال اليهود ان الحجر والشجر سينطق ويقول (يامسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعال فاقتله) اذن لن يكون قتال النصر في فلسطين قتالا يمينيا رجعيا ولا يساريا تقدميا ، وانما يكون قتالا اسلاميا في سبيل الله كما كان دائما قتال النصر للمسلمين (ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا)

وبعد فان الآية الاولى في سورة الاسراء نصت على بركة الارض التى تحيط بالمسجد الاقصى وكذلك آيات اخرى نصت على هذه البركة مثل قوله تعالى في حق الخليل ابراهيم « ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين » وقوله (وجعلنا بينهم ومن القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وايام آمنين) ، والبركة الزيادة في كل شئ ، وليست بركة هذه الارض مادية وانما بركتها بالاضافة الى الاشياء المادية بركات معنوية تتمثل في انها عش الانبياء ولذلك فكر

اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في دفنه في بيت المقدس عند وفاته باعتبارها عش الانبياء ، وكانت لم تفتح بعد، وهى مهبط الوحى وهى مسرى النبى ومعراجه منها صلى الله عليه وسلم وهى القبلة الاولى فقد صلى المسلمون الى مسجدها ستة عشر شهرا ومسجدها تشد اليه الرحال كما ورد في الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى » .

ومن بركة هذه الارض استقراء انه حينما يبتعد المسلمون عن محور عزهم ومركز قوتهم وهو الاسلام يضعفون ويتمزقون وتكثر دولهم ودويلاتهم فيسهل على العدو أن يتسرب من خلالهم فيأخذ الارض المباركة ويأخذ المسجد الاقصى وعندها يتحرك المسلمين حركة حياة من جديد وينفضون غبار الهزيمة فيعملون لاستخلاص هذه الارض فعن طريق استخلاصها يتم توحيد المسلمون من جديد . الا ترون انه بسبب حريق المسجد الاقصى كان مؤتمر القمة الاسلامى الاول في المغرب الذى انبثق عنه مؤتمر وزراء الخارجية المسلمين الذين كونوا الامانة العامة الاسلامية في جده ، وهذا من بركة هذه الارض التى باركها الله . ولذلك لن يصل احد مع اليهود واعوانهم الى حل حتى يأتي امر الله ويتوحد المسلمون ، ويعود الاسلام محركا للحياة في ديار الاسلام وفي العالم كله .

وقد ظهرت بركتها في الحروب الصليبية اذ بعد ان اخذها الصليبيون وظنوا ان الامر قد استقر لهم كانت حروبهم سببا في توحيد المسلمين من جديد فكان نور الدين زنكى الذى وحد الاجزاء المبعثرة واخذ الراية منه صلاح الدين ، فكانت حطين النصر المبين وكانت معركة القدس فيما بعد ودخلها رحمه الله فاعاد الامن والامان اليها وعاد مسجدها الى قدسيته وطهره .

وقدر اهل الشام وفلسطين منها انهم مرابطون الى يوم القيامة حيث الكفار لا يتركون الارض المباركة يستقر اهلها وهم يريدون مسجدها ليقيموا عليه الهيكل .

روى الطبرابي عن النبى صلى الله عليه وسلم ان اهل الشام وازواجهم وذراريهم وعبيدهم واماءهم الى منتهى

الجزيرة مرابطون ممن نزل مدينة وقرية من المدائن فهو في رباط أو ثغر من الثغور فهو في جهاد ، وقدر اهل الشام كذلك ان ينتقم الله بهم من اعدائه فعن خريم بن فاتك اهل الشام سوط الله في ارضه ينتقم بهم ممن يشاء من عباده وحرام على منافقيهم ان يظهروا على مؤمنيهم وأن يموتوا الا هما وغما وغيظا وحزنارواه الطبراني مرفوعاواحمد موقوفا ورجاله ثقات، وعن ابي الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سمعه يقـــول الملحمة الكبرى بارض يقال لهـــا الغـــوطة فيها مدينة يقـــال لها دمشق خير منازل المسلمين يومئذ رواه الحاكم وقـــال صحيح الاسناد وقد روى ابو بكر بن شيبة عن ابي الزاهرية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم معقل المسلمين من الملاحم دمشق ومعقلهم من الدجـــال بيت المقدس ومعقلهم من يأجـــوج ومأجوج الطـــور .

وعلى هذا فالارض المباركة بركتها بالاضافة الى الاشياء المـــادية التى ذكرها المفسرون من الثمار والاشجار والانهار والارض المعطاء والســـهل الخصيب والجبال العالية والارض المنخفضة التى تجعلك تنتقل في ساعة من زمن أو أقل من مستوى سطح البحر الى العلو الشاهق الى الغـــور المنخفض فهناك البركة المعنوية والبركة المادية تتصاغر امـــام البركة المعنوية والتى باركها الله فجعلها القبلة الاولى يصلى اليها المسلمون واسرى بنبيه اليها وعرج به من مسجدها الى السموات العلى وجعل مسجدها الاقصى تشد اليه الرحـــال وهى عش الانبياء وهـــذا مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأتي بنفسه لتسلم القدس ولذلك فحينما يتحدث اليهود واعوانهم عن الوطن البديل للفلسطينيين يظنون ان أى ارض يمكن ان تستبدل بها الارض المباركة ويظنون ان الامر امر اسكان لاجئين او استقرار مشردين وما علموا أو هم يتجاهلون ان هذه الارض لا تدانيها ارض اخرى ولا يمكن ان يقوم مقامها وطن بديل في أى بقعة من بقع الكرة الارضية اذ ان هـــذه الارض مرتبطة بعقيدة المسلمين سجلت في كتاب الله بوصفها القبلة الاولى وبوصفها مسرى النبى وبوصفها معراج الرسول وبوصفها الارض المباركة ولذلك فهى لا تخص الفلسطينيين وحدهم ولا تخص العـــرب وحدهم بـــل تخص المسلمين اينمـــا كانـــوا وحيثما وجـــدوا وما دام كتاب الله القـــرآن موجودا على الارض يتلى وفي الارض مؤمنون فليس هناك

استقرار لدولة اليهود وهى في طريقها لان تصبح من مخلفات التاريخ كما اصبحت دولة الصليبيين من قبلها من مخلفات التاريخ تؤلف الكتب عن اسباب زوالها ويكتب الباحثون ابحاثهم ويعطى العلماء آراءهم في ذلك وكلهم او جلهم ينسى او يتناسى الحقيقة الازلية وهى استحالة ان يملك هذه الارض غير المسلمين ملكا مستقرا وان تبقى في حـــورة اعدائهم لان هذه ارادة الله بينها ليلة الاسراء .

والواقع ان العالم كله لا يفقه القضية الفلسطينية أو القضية اليهودية وانما كل فئة تنظـــر الى القضية من زاوية معينة تتفق مع مصلحتها وهذه النظرة بالنسبة لمصالحها صحيحة ، فالغرب ينظر الى القضية على انها امتداد للحروب الصليبية ، وان اليهود اداة في يديه لتمزيق الوطن الاسلامى والسيطرة على بلاد المسلمين وتهديدهم حتى لا يفيقوا مرة اخرى فيتعرضوا لقيادة الدنيا وانقاذها مما تعانيه . وروسيا تنظر الى القضية على ان بقاء دولة اليهود في بلاد المسلمين امر ضرورى لايجاد التناقض حسب الفكر المـــادى ولذلك هى مع بقاء دولة اليهـــود ، وتحارب الطبقة الحاكمة في اسرائيل حربا طبقية باعتبارها عميلة للغرب ، ويهمها ان يبقى التناقض في المنطقة ، وعـــدم الاستقرار لان ذلك حسب وجهة نظرها يغذى الحركة الشيوعية وينميها . والحكام في المنطقة او اكثرهم يرون في دولـــة اسرائيل ضمانا لبقائهم فهم يريدون لها ان تبقى حتى يبقـــوا ولكن يريدون منها ان تتنازل عن بعض ما اخذته حتى يكون ذلك (انتصارا) ظاهريا يخدع به الشعب العربي والمسلمون من ورائهم . واهـــل البلاد الذين اخرجوا من ديارهم (الفلسطينيون) ينظرون الى القضية من زاويـــة انهم شعب ظلم وشرد واضطهد فهم يريدون حيـــاة الاستقرار في الارض التى ولـــدوا فيها او نبت اباؤهم فيها او دفن اجدادهم في ترابها فهم يحنون بفطرتهم اليها ولا يرون في الدنيا ارضا تكون بديلا لها وهذا صحيح ولكن هذه النظرات المختلفة للقضية من زواياها المختلفة ليست هى القضية وانما القضية تتعلق باليهود أو بغضب الله على اليهود والمستمر عبر التاريخ بالعذاب الواقع بهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الانسانية حلقة من حلقات الغضب والسخط عليهم من الله . ان الله اخبر في القرآن في آيات الاسراء كما اسلفت في اول البحث

وفي حديث البخارى ومسلم انه قبل قيـــام الساعة ستقوم لليهود دولة ثم يتولى المسلمون تصفيتها حتى يقـــول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعـــال فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود .

ولقد حاول العالم منذ ١٩٤٨ او القوى الكبرى في العالم او الغرب على وجه التخصيص ان يثبت اسرائيل دولة فوضع الحلول وحـــاك المؤامرات وخـــلق قيـــادات واوجـــد زعامات لتتعاون معه على تثبيت اسرائيل دولـــة، ولكن المؤامرات تفشل والطبخات تحترق وذلك بفضل الله ثم معاونة اليهـــود انفسهم حيث يرفضون كل ما يعرض عليهم حتى يأتي يومهم الموعود وقدرهم المرصود فتزول دولتهم بآثامها وشرورها وان الغرب اليوم يحاول جاهـــدا لانقاذ دولـــة اليهود من مصيرها المحتوم وقـــدرها المرسوم رغم انفها ، ولكن اليهود يتمردون على من اوجدهم ذلك بانهم قوم لا يعقلـــون وصدق الله اذ يقـــول في حقهم « لا يقاتلونكم جميعا الا في قـــرى محصنة أو من وراء جدر باسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون » .

وان من بركة الارض المباركة ان المسلمين يتوحدون دائما عن طريق استخلاصها من ايـــدى اعدائهم وذلك ان الامة الاسلامية حينما تبتعد عن محور قوتها وهو الاسلام يلحقها الضعف والتشتت فتقـــام فيها دول ودويـــلات حتى تصل في صغرها الى مستوى الاحياء والحارات فيأتي العـــدو ليتسلل عبر هذا الضعف فيأخذ الارض المباركة وتسقط القدس ، ويسقط الاقصى في يديـــه عند ذلك تبدأ الامة في التحرك حركة الحياة من جديد حتى اذا وقفت على قدميها كرت على عدوها لتخلص الارض المباركـــة منه فتتوحد من اجل ذلك او بسبب ذلك . كان ذلك في الحروب الصليبية وكان ذلك في حروب التتر وهو الآن . ولذلك بسبب حريق الاقصى في ٢١ / ٨ / ٦٩ انعقد مؤتمر القمة الاسلامى الاول وخرجت من ذلك المؤتمر منظمة الدول الاسلامية الممثلة في الامانة العامـــة الاسلامية في جده والتى يعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية مؤتمرهم السنوى في احد العواصم الاسلامية وسيستمر اللقاء والتقارب حتى يصل الى حد التمازج والتلاحم فيشترك المسلمون كل المسلمين في تحرير الارض المباركة التى تكون سبب وحدتهم .

وبمناسبة انعقاد مؤتمر السيرة النبوية في استنبول ، عاصمة المسلمين لعدة قرون ومركز الخلافة الاسلامية لمئات السنين لابد من الاشارة الى الدور الذى لعبته الدولة العثمانية في حماية المقدسات الاسلامية وخصوصا في فلسطين ، ولابد من الاشارة هنا الى الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد رحمه الله حيث رفض ان يعطى اليهود امتيازات في الارض المباركة مما جعلهم يحنقون عليه ويشوهون سمعته ويعملون على عزله متعاونين مع قوى الشر المختلفة من صليبية وماسونية ، ونعرات قومية مما هيأ الظروف من بعده الى التآمر على دولة الخلافة ، ومن ثم ذهابها وقيام دولة اليهود في الارض المباركة ولكن هذه الدولة لا تدوم كما اسلفت وكل الدلائل تشير الى سرعة زوالها وذلك حتى تتحقق الآيات والاحاديث في حقها « ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا »

والله سبحانه وتعالى اعلم وصلى الله على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .

يقول ابن المقفع في (رسالة الصحابة) :

وقَدْ عَلِمْنَا علماً لا يُخالِطه شَكٌّ أن عامَّة قط لم تَصلُحْ من قِبَل أنفُسها ، وأنها لم يَأتِها الصَّلاحُ إلا من قِبل إمامها ؛ وذلك لأن عَدَدَ الناس من ضَعفتِهم وجُهّالهم الَّذِينَ لا يَستغنون برأي أنفُسهم ، ولا يحمِلون العِلْمَ ، ولا يتقدمُون ، في الامور . فإذا جَعَل الله فيهم خواص من أهل الدين والعُقُول ، ينظُرون إليهم ويسمعُون منهُم ، واهتمت خواصُّهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليها بجدٍ ونصح ومُثَابَرة وقوة ، جَعَل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغاً الى الخير كُله .

وحاجَةُ الخواص الى الامام الذى يُصْلحهم الله به كحاجة العامه الى خواصهم وأعظم من ذلك . فبالإمام يُصْلح اللهُ أمرهم ، ويكبِتُ أهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبين لهم عند العامة منزلتهم . ويجعل لهم الحُجة والأيْدَ في المقال على مَن نكب عن سبيل حقهم .

موعظة عمرية

زار يوماً حفص بن ابي العاص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان جالسا الى طعامه فدعا إليه حفصاً ، ولكن هذا رأى الفديد اليابس الذى يأكل منه عمر ، فاعتذر إليه . فسأله عمر رضى الله عنه : ما يمنعك من طعامنا ؟ . فأجاب حفص : إنه طعام جَشِب غليظ ، وإني راجع الى بيتى فأصيب طعاماً لينا قد صنع لى.

فقال عمر (رضى) أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى . فيلقى عنها شعرها ، وآمر برقاق البرُ فيخبز خبزاً رقاقاً ، وآمر بصاع من زبيب فيلقى في سمن ، حتى إذا صار مثل عين الحجل صُبَّ عليه الماء فيصبح كأنه دم غزال . فآكل هذا وأشرب هذا ؟ ! . . قال حفص : إنك بطيب الطعام لخبير . .

قال عمر رضى الله عنه : والذى نفسى بيده لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم . . ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه . . ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت . وتضع كل ذات حمل حملها . . وإني لأستبقى طيباتي لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » .

من كتاب (بين يدى عمر)

مختارات
من
الصحف

محمد أمين المصري

بقلم الشيخ محمد الصباغ
جامعة الامام محمد بن سعود

انا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

أخذ الموت – في الشهر الماضي – من بيننا علما من أعلام الاسلام ، ورجلا من رجالاته ، ظل في الساحة حتى آخر لحظة من حياته : انه الدكتور محمد أمين المصري رحمه الله رحمة واسعة .

ووفاء ببعض حقه اكتب هذه الكلمة المتواضعة التي تعرف بهذا الرجل الكبير وتعبر عن عميق مشاعر الحب له ، وتبكي حظ المسلمين الذين يفقدون الخلف حتى أصبحنا نخشى أن تخلو الساحة .

ولد محمد أمين في دمشق ، وفي ربوعها الخيرة نشأ ، وفي كريم اجوائها المتدينة المحافظة درج وشب . وكان الناس يومذاك بين عالم ديني منقطع عن الحياة المعاصرة، ويتبعه العامة ، وشاب متفرنج تلقى علوم الغرب بروح مجافية للدين فأضحى لا يبالي بالدين ولا يهتم به . ونشأت ناشئة فاضلة من فتيان دمشق المسلمة تلقت من علوم العصر ما يتلقى اولئك المتفرنجون ولكنها لم تنس دينها ولم تنحرف عن الصراط السوى ، وبقيت وفية للاسلام وتعاليمه ، مقيمة لحدوده واحكامه ، معلنة باعتزاز واباء استمساكها به وتبنيها له .

كان أولئك الفتية يلتهبون حماسة ، ويمتلئون غيرة ، فتنادوا للتعاون على الخير والبر والتقوى ، واتخذوا لهم من ربى جبل قاسيون مقرا يأوون اليه ، فيتداولون الرأي في الذي يجب عليهم أن يعملوا ، ويقرأون بعض كتب التراث كاحياء علوم الدين ليتزودوا ، ويلتفون حول مجلة الرسالة يطالعون بنشوة وسرور

مقالات الرافعي . . وكان فقيدنا محمد أمين المصرى واحدا من هـؤلاء الشباب .

وانتهت اجتماعاتهم المباركة الى العمل على انشاء أول حركة اسلامية حديثة في بلاد الشام .

هكذا بدأت حياة الطالب محمد أمين المصرى في مكتب عنبر عملا للاسلام ومواجهة للانحراف ، واستعدادا للمضى في المعركة الى الرمـق الاخير .

ويبدو — كما يقرر ذلك أخـونا الكبير الاستاذ عبد الرحمن الباني — ان هذه القراءة في كتب الغـزالى تركت اثرا كبيرا في حياة الدكتور أمين ظل حتى اخر حياته عليه رحمة الله ورضوانه . والشئ الذى يذكره عنه الاستاذ الباني ان الدكتور أمين كان يتميز عن زملائه بارادة صلبة جعلته يطبق كثيرا مما يمر معه في الاحياء مهما كان هذا الذى يطبقه صعبا .

وكان — غفر الله له — يمتاز بالابتسامة المضيئة العذبة ، والحنان الدافئ ، والرفق الوفير ، والوفاء الجم لصاحب المعروف ، فكان يشكره ويذكره بكل خير . وكان يتمتع برنة صوت محببة تزيدها الابتسامة الدائمة حـلاوة وسحرا ، امـا بشاشته واهتمامه بمن يلقى ومحاولة خدمته فشئ منقطع النظير .

سار أمين في مكتب عنبر حتى حمل شهادة البكالوريا (قسم الرياضيات) ثم تابع دراسته في دار المعلمين حتى نـال شهادة أهلية التعليم ، وانتظم مدرسا في قرية (داعل) ، احدى قرى محافظة حوران ، ثم انتقل الى دمشق مدرسا في مدرسة طارق بن زيـاد فعاد إلى أولئك الفتية يواصل عمله معهم لرفعة الاسلام ، وكانت لديهم اهتماما ت روحية وعلمية واجتماعية .

فمن مظاهر الاهتمامات الروحية في فقيدنا انه التحق ببعض مشايخ الصوفية يلتمس تصفية نفسه وتزكية روحه ، والتزم بتكاليفها وظل كذلك الى ان تبين له ما تنطـوى عليه من فساد وانحراف فتركها محذرا منها مبينا ما رآه فيها من المساوئ .

ومن مظاهر الاهتمام العلمى تلك الندوات العلمية التى كان يسهم فقيدنا فيها اسهاما جيدا ، وحضوره دروس عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين الحسنى ودروس الشيخ ابي الخير الميداني . وغيرهم .

ومن مظـاهر الاهتمام الاجتماعى اشتراكه مع زملائه في انشائه الحركة الاسلامية الواعية التى اشرت اليها آنفا .

ثم انتقل عمله الى الثانوى فكان معيدا في التجهيز ومدرسا للدين فيها ، فزاد نشاطه في الدعوة الى الله جدا لان الذين يعلمهم شباب لا اطفال ، وكانت الدعوة القومية في اوج انتشارها وذيوعها ، واستطاع بلباقة فائقة ان يشق طريقه في الدعوة في اوساط هؤلاء الشباب ، وان يحقق ما يريد من الخير على وجه يضمن له الاستمرار في عمله ، وكانت دعوته للاسلام في هذه المرحلة عن طريق الدعوة الى الاخلاق .

وفي سنة ١٩٤١ ذهب الى مصر للدراسة في كلية اصول الدين في الازهر ، والداعى الى ذلك استكمال معرفة هذا الدين ، والرغبة في اصلاح المسلمين ، ونال من هذه الكلية الاجازة ، ثم دخل معهد التربية وحمل شهادته .

وقد اعجب ايما اعجاب بالعالم العامل المجاهد الشيخ محمد الاودن رحمه الله ، ويبدو ان الصلة بقيت قائمة بينهما على اتم وجه ، وقد اصطحبنى مرة الى زيارة الشيخ الاودن في بيته في مكة . رحم الله الجميع . وكانت له صلة طيبة بالحركة الاسلامية في مصر ، وكان يحرص على حضور محاضرات الاستاذ البنا رحمه الله ، ومحاضرات العلامة السيد محمد الخضر حسين ، وكان يلقى بعض الخطب في الحفلات الاسلامية التى كانت تقام . وله موقف مشهود في الجرأة في قول الحق ، ومواجهة الناس به وذلك اثناء حفلة اقيمت في دار جمعية الهداية الاسلامية في القاهرة .

وقد حدثنى الاستاذ الباني أنه انتفع مع الفقيد في مصر بتلك الدراسة التى اشتركا فيها على العلامة السيد محمد الخضر في كتاب الموافقات للشاطبى .

وعاد أمين المصرى الى بلاد الشام ، فعين مدرسا في الثانوى وقد درس علوما عدة منها المنطق وعلم النفس .

ثم ارسل الى باكستان ملحقا ثقافيا بالسفارة السورية — عمل هناك على نشر العربية وتعليمها ، والف في ذلك كتابا مهما وممن تخرج على يديه الاستاذ خليل احمد الحامدى مدير دار العروبة للدعوة الاسلامية بباكستان ثم عادليعمل في وزارة المعارف يشترك في وضع مناهج التعليم .

وفي سنة ١٩٥٦ سافر الى انكلترا لدراسة الدكتوراه وكانت له قصة في اختيار موضوع الرسالة ، أذ أبى المستشرقون أن يكون موضوعه نقد « شاخت » ، فاختار موضوعا في « معايير نقد الحديث عند المحدثين » .

وعندما عاد الى الشام عمل في لجنة التربية والتعليم في وزارة المعارف ثم استاذاً في كلية الشريعة في جامعة دمشق ، ودرس فيما درس العقيدة ومصطلح الحديث وفقه السيرة . وقد عهدت اليه كلية التربية ان يدرس الطلاب المتخرجين من كلية الشريعة طرق تدريس الدين ، والف كتابا في الطرق الخاصة للتربية الاسلامية ليفيد منه الذين يعدون للقيام بالتربية الاسلامية وتدريس العلوم الدينية في المدارس المتوسطة والثانوية .

ثم عمل في الحقل العام فتعاون مع رابطة العلماء في توجيه الناس ودعوتهم الى الخير ، ثم اتخذ من جامع المرابط في حي المهاجرين بدمشق منطلقا للدعوة . . اذ كان يخطب فيه الجمعة ويلقي فيه الدروس ، وكان النساء يحضرن في مكان خاص بهن . ولقد كان لهذا النشاط اثر كبير ولحقه بسببه غير قليل من الأذى .

كما عمل ايضا في خدمة المدارس الشرعية ولا سيما التي كانت تفتح ابوابها للطلاب الاتراك .

ثم هاجر الى الحجاز بعد أن ادرك أن الظروف الصعبة التي قامت في بلده لا تتيح له أن يعمل ما يريد من أجل خدمة الاسلام . فترأس قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة في مكة ثم في المدينة ، وحذر من ابتعاث أبناء المسلمين الى ديار الكفار ليتلقوا دينهم عن اليهود والنصارى . وكان له نشاط مذكور في اذاعة المملكة العربية السعودية وتلفزيونها .

وقد تبين له — تغمده الله بواسع رحمته — أنه لابد من قيام دعوة اسلامية قوية متميزة شاملة ، ووجد ان هذا هو السبيل الاوحد لاصلاح المسلمين وخدمة الاسلام : وكان ينادى بذلك ولا سيما في أيامه الاخيرة .

كما تبين له — عن طريق التجربة الذاتية — فساد الطرق الصوفية التي تدعى العمل لاصلاح النفس ، ومن أجل ذلك كان من أشد الناس حربا للدجالين القائلين بوحدة الوجود وكان يحذر من خطرهم اعظم التحذير ويعلن ان الخير كل الخير في اتباع ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح لهذه الامة .

وكان رحمه الله محبا لخدمة الصالحين لا يبخل بجاهه ولا يتأخر عن مساعدة يملكها .

ولا يفوتني أن اذكر مؤلفاته التي بلغني نبأ وجودها :

١ ــ كتاب الطرق الخاصة للتربية الاسلامية .

٢ ــ كتاب تعليم العربية ، ويقع في ٤ أجزاء وهذا الكتاب ألفه خلال تعليمه العربية في باكستان .

٣ ــ الطفل السوى وبعض حالات شذوذه ، وقد ترجم هذا الكتاب عن الفرنسية بالاشتراك مع غيره ، ونشر في عدد خاص من مجلة المعلم العربي التي تصدر في دمشق .

٤ ــ محاضرات في فقه السيرة (مطبوع على الآلة الكاتبة) .

٥ ــ محاضرات في العقيدة (مطبوع على الآلة الكاتبة) .

وله عدد من المؤلفات التي لم تطبع بعد .

وبعد فما اكثر ما لقيت الدكتور امين في دمشق ومكة والمدينة والرياض ولكني لم القه مثل اللقاء الاخير الذى سبق موته بأسابيع ثلاثة . فقد التقينا في دوسلدورف بالمانيا في مخيم الطلبة المسلمين كان ــ غفر الله له ــ يتألق صفاء ، ويموج حيوية ويمتلئ نشاطا وكانت محاضراته القيمة موضع الاستحسان والاعجاب من السامعين

رحم الله الدكتور محمد امين المصرى واحسن جزاءه وعوض المسلمين عن فقده وانا لله وانا اليه راجعون .

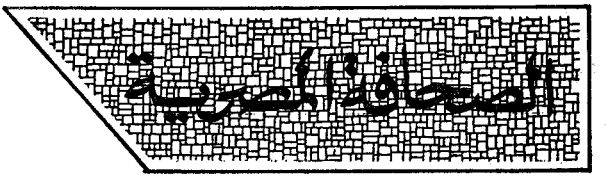

في قفص الاتهام

في الجلسة الثانية لمحاكمة المتهمين بخطف وقتل المرحوم الشيخ محمد حسين الذهبي . . وقف المحامي رشدي بدوي ووضع « الصحافة » المصرية في قفص الاتهام . . صائحا في وجهها . . ومشيرا إليها قائلا :

لم تلتزم الصحافة بميثاق الشرف لقد بالغت الصحافة في وصف بعض المتهمين حتى فهم البعض أن ذلك يعتبر تحريضا للرأى العام ضدهم قبل أن تثبت إدانتهم وأقل حق في عرف القضاء أن المتهم برئ حتى تثبت إدانته . . ولقد سمعت حوارا بين واحد من رجال إدارة المحاكم العسكرية . . ورتبة عسكرية أخرى جاء فيه :

— لقد فشلت الصحافة فشلا ذريعاً في عرضها للقضية . . لقد زيفت . . وكذبت . . وقالت بسذاجة وجهل ان أعضاء الجماعة يتزوجون زوجات بعضهم . . وأنهم منحرفون . . وأنهم وأنهم . . وقد راجعت أحد الصحفيين في ذلك فقال :

— أنتم السبب . . لانكم لم تعطونا أخبارا . . ولم تيسروا لنا المعلومات ! ! وحين سئل رئيس المحكمة أثناء الجلسة عن هذا قال :

— نحن لسنا مسئولين عما تنشره الصحف ! !

ووقعت الصحافة في مأزق . . وتعرت تماما . . لأنها أسرفت في السب . . والشتائم . . والتجريح لأعضاء الجماعة ووصفتهم بأبشع الصفات .

في نفس الوقت لم تستطع أى جريدة أو مجلة أن تتناول فكر هذه الجماعة بالتفنيد وإلقاء الضوء على نقاط الانحراف . . والسبب أن أغلب الذين كتبوا عن القضية

جاهلون بالاسلام . . وكثير منهم حاقد على الاسلاميين أصحاب الاتجاه الاسلامى . . فراحوا يهرجون . . ويصخبون ويتملقون جهاز الامن بصورة متورمه . . حتى قال البعض . .

ـ ماذا كانت ستفعل الصحافة . . لو أن جهاز الامن استطاع أن ينقذ حياة الشيخ الذهبي ! !

ونحن مع يقيننا أن جماعة شكرى مصطفى باعتقادها أن جميع المصريين كفار تكون قد انحرفت عن فقه أهل السنة . . وسلكت سبيل الخوارج . . إلا أننا نقول إن هناك ظروفا كانت بمثابة المناخ الذى ساعد على تفريخ تلك الجماعة . . أقصد مناخ القهر . . والمطاردة والتشريد والسجن والاعتقال بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذا الشعب . . وكان اعضاء الحركة الاسلامية في مصر أكثر الذين تعرضوا للقهر والمطاردة والتشريد ! ! والسجن والاعتقال . . مما يجعلنا نعتقد أن وراء محن الحركة الاسلامية خلال الربع قرن الاخير عقلا شيطانيا . . وحقدا وكراهية للاسلام والمسلمين ! !

ونحن ضد الجريمة . . ونشجب كل فكر منحرف أيا كان صاحبه لأن الاسلام أعز علينا من كل البشر ولكننا قبل أن نصدر حكما بالادانة علينا أن نتبين الدليل حتى لا نقع فيما ننهى غيرنا عنه . .

كان الاجدر بالصحافة إن تفتح صفحاتها لمناقشة هذا الفكر لدحضه وتفنيده . . وإظهار باطله . . وإتاحة الفرصة الكاملة للعلماء المخلصين لأن يقولوا كلمتهم . . حتى نحمى شبابنا من الاستجابة لمثل هذه الافكار ! !

ولكن للاسف لم يحدث . . بل أن الذى حدث ان بعض علمائنا الذين كان لهم في نفوس الشباب مكانه كبيرة قبل توليهم سلطة الوزارة استدرجوا من الصحافة وقالوا كلاما سيحاسبهم الله عليه فقد وصفوا زوجات المتهمين بأنهن دميمات معقدات دخلن الجماعة بدافع نفسى هو الميل الأنثوى للرجال .

فما هكذا يتحدث العلماء ! ! يا علماء مصر ! !

عن مجلة (الاعتصام) ـ القاهرة :

رأى في الموضوع

أجهزة الإعلام

في موضوع الهبوط الذى تتخبط فيه وسائل الاعلام عقدت مجلة الدعوة (القاهرية) استطلاعاً مع عدد من أهل القلم والفكر وقد أمكن تلخيص آرائهم في النقاط التالية : ــ

١ ــ الاسراع في تطبيق الشريعــة الاسلامية فأجهزة الاعلام هى مرآة المجتمع فإصلاحها يتطلب إصلاح المجتمع الذى تعكسه حتى ينشأ جيل يرفض الانحراف تماما وبذلك لا تجرؤ أجهزة الاعلام على تقديم الانحراف ! !

٢ ــ بناء رجل الاعلام المسلم عن طريق :

ــ إنشاء كلية للاعلام بالازهر الشريف تحتوى على جميع التخصصات في هذا المجال ولا تقتصر فقط على قسم الصحافة بكلية اللغة العربية بالأزهر والهدف من ذلك تكوين جهاز إسلامى إعلامى مطبوع بطابع الاسلام وليس بطابع الغرب أو الشرق .

ــ إعطاء دورات ثقافيه دينيه لجميع العاملين بأجهزة الاعلام وذلك بصفة دورية وتشمل هذه البرامج التعريف بالاسلام وواقع المجتمع المصرى ومشاكله حتى يكون العامل في الاعلام على علم بدينه وواقع المجتمع الذى يعيش فيه .

ــ جعل الدين مادة أساسية في كلية الاعلام حتى يتخرج طالب الاعلام وعنده فكرة كاملة عن الاسلام عقيدة وشريعة . . منهجاً وسلوكا .

٣ ــ قصر العمل في مجال الاعلام على المتخصصين فيه مع تشجيع المواهب على

الالتحاق بالمعاهد المتخصصة وبذلك تتوفر الموهبة والعلم والهدف من ذلك الارتفاع بمستوى أجهزة الاعلام والتخلص من الدخلاء الذين هبطوا بالاعلام الى الحضيض .

٤ – إجراء حركة تطهير في أجهزة الاعلام وتشمل المنحرفين خلقيا وعقائديا وتبدأ بالاساتذة الشيوعيين في كلية الاعلام فالشعار الذى ترفعه الدولة بأن من لا إيمان له لا أمان له يجب تطبيقه فورا .

٥ – وضع ميثاق شرف لحماية المجتمع من الانحراف ويشمل هذا الميثاق معنى الانحراف وتحديد أهداف الدولة والمجتمع من أجهزة الاعلام وتوقيع عقوبة على كل مسئول يضع برنامجاً يتعارض مع دين الدولة وقيمها ومثلها مع وقف البرنامج فوراً .

وهكذا أجمعت الآراء على تحديد معنى الانحراف من واقع ما ينادى به الاسلام .

أذان من السودان

(. . ان ما بدا من تعبيد السبيل إلى تطبيق أحكام الله خالصةً من كل دخيل وغريب ، وإقامة حدوده ومحارمه ، إنما هو عمل ايماني وتاريخى كبير لن يقف أثره الموضعى المحلي على ارض السودان في خريطة العالم من حيث تحرير السودان من التبعية القانونية لغير ما أنزل الله ، بل سيكون له صدى بالغ الدلالة عميق الأثر ، وستكون جمهورية السودان، وهى قطعة غالية من خريطة العالم الاسلامى، نبراساً يقتدى به ، وخير من يزف البشرى للعالم الاسلامى كله . فان أوبةً إلى التشريع الاسلامى بعد طول غربة ووحشة هى أوبة العدل الآلهى الذى يعصم الإنسان عقله وعرضه ودمه وماله، وإرساء لصرح أمن قانوني رفيع على هدى المنهج الآلهى . .) .

عن مجلة الدعوة القاهرية

جميل بسيوني

المستشار وعضو اللجنة السودانية

المجلة : (انها لبشرى تفجـــرالامل بفجر جديد هو مايتلهف اليهالعالم البشرى الضائـــع كله لا العالم الاسلامي وحده .

(وقل اعملوا ، فسيرى اللـــهعملكم ورسوله والمؤمنون) .

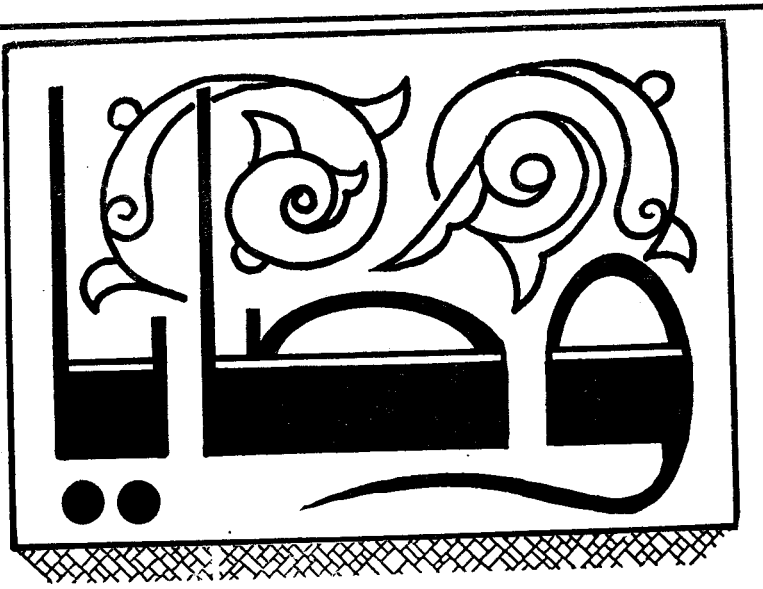

صحية

منظور

لعادة الدكتور حسين كامل

أخصائي الصدر بمستشفى الجامعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وصحبه وآله أجمعين

نيابة عن أعضاء الادارة الطبية بمستشفى الجامعة يطيب لى أن أتقدم بهذه النصائح الطبية لابنائنا الطلبة وأخواننا العاملين بالجامعة وأساتذتنا ، وخصوصا أن موسم الحج على الأبواب ونظراً لانتشار مرض الكوليرا في كثير من الأقطار العربية الشقيقة .

الكوليرا مرض سريع الانتشار وهو يسبب للمصاب حالات قيء مستمر واسهال شديد مائي مما يؤدى إلى فقد كمية كبيرة من السوائل في الجسم ويؤدى إلى هبوط حاد في الدورة الدموية ووظائف الجسم وقد ينتهى الأمر بوفاة المصاب .

وللوقاية من هذا المرض يجب علينا ما يلى :

أ ــ سرعة التوجه إلى مركز التطعيم بالجامعة في المستشفى وقد تم حتى الآن تطعيم غالبية العاملين بالجامعة والطلبة كما يقوم المركز بتطعيم الأهالى .

ب ــ مقاومة الذباب لأنه يلعب دورا كبيرا في نقل المرض وتغطية الفضلات والقمامة يجب ان تكون في صناديق مغلقة .

جـ ــ مراعاة غسل الخضروات الطازجة جيدا بالماء والصابون أو وضعها في محلول برمنجانات البوتاسيوم لمدة ١٥ دقيقة .

د ــ مراعاة غسيل الايدى جيدا بعد الخروج من دورة المياه .

هـ ــ التوجه فورا إلى المستشفى إذا كانت هناك أعراض مرضية حتى يمكن العلاج المبكر وعزل المصاب .

كما يجب على ابنائنا الطلبة توعية أصدقائهم وأسرهم .

وفقنا الله جميعا لخدمة ولرفعة هذا الوطن الطاهر الأمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دكتور / حسين كامل طه
اخصائي الصدر بمستشفى الجامعة

الى أين أيها .. المغرب الحبيب ؟

يوم ١٧ / ١٠ / ٩٦ وبينما كان ثلاثة من المسلمين يعرضون كتباً وصحفاً اسلامية في حى الاســوفال ، فوجئوا بخمسين من الشيوعيين المنتسبين لما يسمى بالاتحاد العام لطلبة تونس ، يهاجمون الثلاثة بالضرب ، ولم يكتفوا بذلك حتى أقبلوا على الكتب والصحف الاسلامية يمزقونها . وخصوا القرآن الكريم بكبر هذه الجريمة فقطعوه إربا إربا ثم احتفلوا بإحراقه .

جريدة (النور) المغربية

* • *

المسيح ليس ابن الله

فاجأ ثمانية من علماء اللاهــوت البروتستانتيين الاوساط الدينية المسيحية في بريطانيا بفتوى اصدروها في كتاب (المسيح ليس ابن الله) الذى قالوا فيه : ان امكانية تحول الانسان الى الله لم تعد بالشئ المعقول والمصدق به في هذه الايام ، وان النبى عيسى هو انسان طبيعى وهبه الله هبات لم يهبها لغيره فهو نبى مرسل .

وقد لقى الكتاب رواجاً منقطع النظــير .

مجلة النور —

* * *

بيان رسمى له أثره . .

إن البيان الذى صدر من مصر ينعى ماوتسى تونج قد صدم مشاعر المؤمنين في كل مكان . فقد ختم بهذه العبارة :

« رحم الله الفقيد العزيز وألهم شعب الصين الصبر والسلوان » . .

إن رحمة الله التى وسعت كل شىء ليس فيها متسع لماوتسى تونج .

مجلة الدعوة . .

محمد سيد احمد

مدرس مساعد بكلية أصول الدين

شهادة حق

صرح الباندت بشميه ناته ياندى عضو البرلمان الهندى بمدينة « إله آباد » : إن الاسلام يعلم دروس الوحدة والتآخى والنظرية التى عرضها النبى الخاتم على الانسانية حول القومية والمحبة مع الوطن ، إنما هى من أمثل الوجهات منقطعة النظير في العالم ، وأضاف قائلا بأن المستعمرين البريطانيين قدموا الحقائق التاريخية مشوهه وشوهوا مآثر الامبراطورية الاسلامية لغرس النفاق والشقاق بين الشعوب الهندية وخاصة أنهم شوهوا الاعمال الناصعة التى قام بها الملك أورنك زيب .

جريدة (الرائد) الهندية

أخبار الجامعة

تلقى نائب رئيس الجامعة موافقة صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء والرئيس الأعلى للجامعة على تعيين فضيلة الشيخ عمر محمد فلاته رئيسا لمجلس شؤن الدعوة الاسلامية بالجامعة . . وجدير بالذكر انه يشترك في عضوية المجلس عضو من هيئة التدريس من كل كلية من كليات الجامعة ورئيس شعبة الدعوة في قسم الدراسات العليا بالجامعة ورئيس قسم الدعوة في كلية الدعوة واصول الدين بالجامعة .

نتيجة الدور الثاني في الشهادات العالية بالجامعة الاسلامية لعام ٩٦ / ١٣٩٧ هـ

(١) الطلاب الناجحون بكلية الشريعة

مسلسل	اسم الطالب	جنسيته
١	أسرارى عفيف	أندونيسى
٢	شعيب حبيب عثمان	أوغندى
٣	محمد أحمد سالم بيبه	سعودى
٤	السيد عقيل عثمان	سنغافورى
٥	صالح بن سالم الجهنى	سعودى
٦	واهـــاما والنج	تايلندى
٧	محمد سلطان عبد الفتاح	أثيـــوبي
٨	محمد فؤاد فهيم الدين	سعودى
٩	إمداد الرحمن على	باكستاني
١٠	القائد محمد أسلم	باكستاني
١١	عبد القدير غداينور	أفغـــاني
١٢	طورس محمد محمود بك	ســـورى
١٣	حسن ابراهيم الاهـــدل	يمـــنى
١٤	عبد الرشيد محمد دن	باكستاني
١٥	محمد حياء محمد بطى	سعودى
١٦	حسن حمزة محمد الحسن	سوداني
١٧	عبد المجيد ابراهم الشيخ	أردني
١٨	السيد محسن عبد الرحمن الكاف	سنغافورى
١٩	محمد كمال سعيد	أثيوبي
٢٠	زبـــر عبد السلام	نيجيرى
٢١	على محمد محمود	صومالى
٢٢	خادم حسن الهى بخش	باكستاني

(٢) الطلاب الناجحون بكلية الدعـــوة وأصول الدين

مسلسل	اســـم الطالب	جنسيته
١	عبد القادر منصور	سورى
٢	عبد الله الشيخ محمد الامين	سعودى
٣	طلال مصطفى عرقسوس	سعودى
٤	اسماعيل عـــلى	تايـــلاندى
٥	سماعى آدم	تايـــلاندى

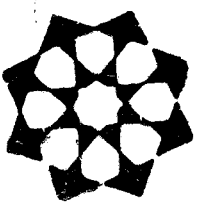

الموسم الثقافي في الجامعة الاسلامية للعام الدراسى ١٣٩٧ هـ / ١٣٩٨ هـ

بدأ الموسم الثقافي بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة مساء يوم الاربعاء الموافق ٤ / ١ / ١٣٩٨ هـ بأولى محاضراته البالغ عددها خمس عشرة محاضرة ستكون بإذن الله على النحو التالى :

العدد	اسم المحاضر	موضوع المحاضرة	تاريخها
١	الشيخ الدكتور جاد رمضان	موقف اليهود من الدولة الاسلامية عند نشأتها	١٣٩٨/١/٤ هـ
٢	« عبد الفتاح عشماوى	كيف نكون شاكرين	١٣٩٨/١/١١ هـ
٣	« الدكتور أحمد الأحمد	في الدبلوماسية الأموية	١٣٩٨/١/١٨ هـ
٤	سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز	أصول الايمان	١٣٩٨/١/٢٥ هـ
٥	الشيخ محمد أبو طالب شاهين	مع سورة الكهف	١٣٩٨/٢/٢ هـ
٦	« عبد الرؤوف اللبدى	آراء في البحث	١٣٩٨/٢/٩ هـ
٧	الدكتور أكرم ضياء العمرى	نظرات في دراسة السيرة النبوية	١٣٩٨/٢/١٦ هـ
٨	الشيخ ابراهيم سرسيق	علم النفس الاسلامى	١٣٩٨/٢/٢٣ هـ
٩	الدكتور محمد الواثلى	قبس من تاريخ الفقه الاسلامى	١٣٩٨/٣/١ هـ
١٠	الشيخ عبد الله القادرى	مسئولية التعليم	١٣٩٨/٣/٨ هـ
١١	« عبد الله الغنيمان	ثبات العقيدة الاسلامية أمام التحديات .	١٣٩٨/٣/١٥ هـ
١٢	« محمد أمان	تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة .	١٣٩٨/٣/٢٢ هـ
١٣	« عمر محمد فلاته	الشيخ عبد الرحمن الافريقى حياته وآثاره .	١٣٩٨/٣/٢٩ هـ
١٤	« صالح المحيسن	ما أدخلته الشيعة في التاريخ الاسلامى	١٣٩٨/٤/٦ هـ
١٥	« عبد المحسن بن حمد العباد	لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة الاسلامية .	١٣٩٨/٤/١٣ هـ

فهرست

الصفحة	الموضوع	الكاتب
٣	أهل الكتاب في القرآن الكريم	لفضيلة الشيخ معوض عوض ابراهيم
٩	التكرار في القرآن الكريم	لفضيلة الدكتور احمد جمال العمرى
٢٠	بين القرآن والكتب السماوية ...	لفضيلة الدكتور ابراهيم عبد الحميد
٢٤	عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق...	لفضيلة الشيخ محمد الغزالى
٣٢	الدين الحق	لفضيلة الدكتور عبد المنعم حسنين
٣٦	المصلحة المرسلة	لفضيلة الدكتور على محمد جريشة
٥١	الأدلة والبراهين على حرمة التدخين	لفضيلة الشيخ ابراهيم محمد سرسيق
٦٥	رسائل لم يحملها البريد	لفضيلة الشيخ عبد الرءوف اللبدى
٧٠	الحضارة الإسلامية	لفضيلة الشيخ احمد عبد الرحيم السايح
٨٢	تأملات في كتاب : « الله أو الدمار »	لفضيلة الشيخ محمد مصطفى المجذوب
٩٢	المقاومة في الشعر الاندلسى ... دراسة تحليلية نقدية	لفضيلة الدكتور عبد الرحمن بله على
١٠٤	متى يفيق الغافلون (شعر) ...	لفضيلة الشيخ محمد المجذوب
١٠٦	صيغة (فعلان) واستعمالاتها في اللغة العربية	لفضيلة الدكتور مصطفى احمد النماس
١٢١	تسعة أغلاط في خبر صغير ...	
١٢٢	الاسراء وفلسطين ودولة اليهود ...	لفضيلة الشيخ اسعد بيوض التميمى

الصفحة	الموضوع	الكاتب
١٣٦	من أعماق الكتب	
١٣٨	مختارات من الصحف	
١٣٩	محمد امين المصرى	بقلم الشيخ محمد الصباغ
١٤٤	الصحافة المصرية في قفص الاتهام ...	
١٤٦	رأى في اصلاح أجهزة الاعلام ...	
١٤٨	وصـــايا صحية	لسعادة الدكتور حسين كامل
١٥٠	إلى أين أيها المغرب الحبيب ...	
١٥٠	المسيح ليس ابن الله	
١٥٠	بيان رسمى له أثره	
١٥١	شهادة حق	
١٥٢	أخبار الجامعة	
١٥٣	نتيجة الشهادة العالية بالجامعة الاسلامية	
١٥٤	لعام ٩٦ / ١٣٩٧ هـ	
١٥٥	الموسم الثقافي للجامعة الاسلامية عام ٩٧ / ١٣٩٨ هـ	

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام